موسوعة العقيدة والأديان

علاء الخضري

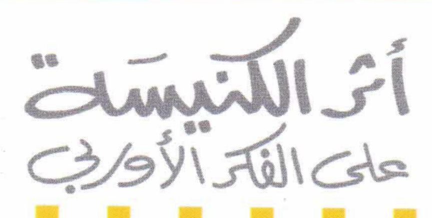
٨

أثر الكنيسة على الفكر الأوربي

د. أحمد علي عجيبة

أستاذ العقيدة والأديان





يتحدث فيه المؤلف عن أثر الكنيسة فى نشأة المذاهب والاتجاهات الفكرية المختلفة فى أوربا.

هذا البحث لا يدعى شمولية الحديث عن كل الاتجاهات الفكرية، وإنما هو قراءة لما ولَّدته تلك القيود التى فرضتها الكنيسة على الفكر فى العصور الوسطى، ذلك أن موقف الكنيسة من العلم، ومقتها للعلماء كان سببا فى نفور الأوربيين من الدين.

لقد نقد المفكرون الأوربيون الكنيسة وحاولوا إصلاحها، ومع تقدم العلوم والمعارف اصطدموا بالكنيسة، وحدث ما سمى بالصراع بين الدين والعلم.

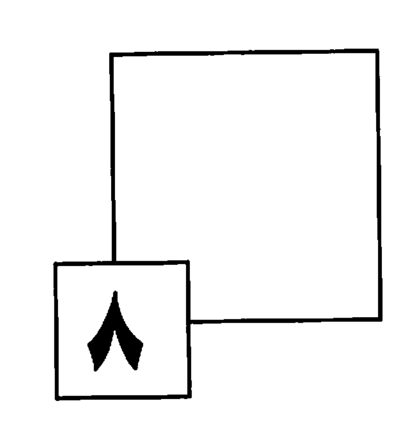
وحينما أتيحت لهم فرصة التحرر من الدين استغلوها إلى أبعد الحدود، ولذلك فإن الكنيسة أضرت بالدين لأنها كانت السبب فى نبذة والتحرر منه.

ونود أن نؤكد هنا أن الذى حدث فى أوربا ليس راجعا إلى الدين بوجه عام وإنما يعود بالدرجة الأولى إلى المسيحية وعقائدها وشعائرها، ورجال الدين فيها، ولذلك فإن هذه النتائج التى أشرنا إليها تولدت فى بيئة معينة، ونتيجة لظروف معينة، ودين معين ومحدد، وهذا الحكم لا ينسب بالضرورة على الإسلام ولا على المجتمعات الإسلامية.

إذ إن الدين السماوى المنزل من عند الله لا يعوق التقدم العلمى، ولا يقف حائلا دون كشف أسرار الكون والطبيعة، ولذلك فهو يدعو الإنسان إلى النظر والتفكير والتأمل وعليه فلا وجود للعلمانية، ولا الصراع بين الدين والعلم، ولا بغيرها من الاتجاهات المادية فى ظل وجود الإسلام.

I.S.B.N. 977 - 344 - 090 - 7

موسوعة العقيدة والأديان



أثر الكنيسة على الفكر الأوربي

د. أحمد علي عجيبة

أستاذ العقيدة والأديان



دار الآفاق العربية

نشر - توزيع - طباعة
٥٥ - ش محمود طلعت - من ش الطيران
مدينة نصر - القاهرة
تليفون : ٢٦١٧٢٣٣٩ - تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤
E-mail : daralafk@hotmail.com

اسم الكتاب : أثر الكنيسة على الفكر الأوربي
اسم المؤلف : د. أحمد علي عجيبة

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/١١٥٣٠
الترقيم الدولي : 7 - 090 - 344 - 977

الطبعة الأولى
٢٠٠٤م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين

وبعد،،

فإن هذا البحث يعد استكمالاً لبحث آخر نشر في عدد سابق من حوليات هذه الكلية المباركة وكان موضوعه (البابوية وسيطرتها على الفكر الأوربي في العصور الوسطى) تحدثت فيه عن أسباب سيطرة البابوية على الفكر الأوربي، ووعدت بكتابة بحث آخر عن النتائج.

ولذلك يأتي هذا البحث لإبراز أثر الكنيسة في نشأة المذاهب والاتجاهات الفكرية المختلفة في أوربا.

فالعلمانية، والصراع بين الدين والعلم، بل والتحرر من الدين يُعد أثرا من آثار سيطرة الكنيسة على الفكر الأوربي.

وأحب أن أنوه أن هذا البحث لا يعد مسحا عاما لكل الاتجاهات الفكرية الأوربية، ولكنه بالأحرى رصد وتفسير لأهم النتائج التي تولدت نتيجة هيمنة الكنيسة على مقاليد الأمور في العصور الوسطى.

هذا البحث لا يدعي شمولية الحديث عن كل الاتجاهات الفكرية، وإنما هو قراءة لما ولدته تلك القيود التي فرضتها الكنيسة على الفكر في العصور الوسطى. ذلك أن موقف الكنيسة من العلم، ومقتها للعلماء كان سببًا في نفور الأوربيين من الدين.

لقد نقد المفكرون الأوربيون الكنيسة وحاولوا إصلاحها، ومع تقدم العلوم

والمعارف اصطدموا بالكنيسة وحدث ما سمي بالصراع بين الدين والعلم، وحينما أتيحت لهم فرصة التحرر من الدين استغلوها إلى أبعد الحدود، ولذلك فإن الكنيسة أضرت بالدين لأنها كانت السبب في نبذه والتحرر منه.

ونود أن نؤكد هنا أن الذي حدث في أوربا ليس راجعًا إلى الدين بوجه عام، وإنما يعود بالدرجة الأولى إلى المسيحية وعقائدها وشعائرها ورجال الدين فيها، ولذلك فإن هذه النتائج التي أشرنا إليها تولدت في بيئة معينة، ونتيجة لظروف معينة، ودين معين وهذا الحكم لا ينسحب بالضرورة على الإسلام ولا على المجتمعات الإسلامية.

إذ أن الدين السماوي المنزل من عند الله لا يعوق التقدم العلمي، ولا يقف حائلاً دون كشف أسرار الكون والطبيعة، ولذلك فهو يدعو الإنسان إلى النظر والتفكير والتأمل.

وعليه فلا وجود للعلمانية، ولا صراع بين الدين والعلم، ولا لغيرها من الاتجاهات المادية في ظل وجود الإسلام.

والله ولي التوفيق

أزمة الفكر الأوربي في العصور الوسطى[١]

تهيأ للكنيسة في العصور الوسطى سلطان واسع النطاق، ممدود الرحاب، روحيًا بحكم وظيفتها، وسياسيًا بسبب ضعف الملوك والأباطرة[٢].

فقد أدى ضعف أباطرة الرومان ثم انهيار الإمبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦م إلى ازدياد سلطة الكنيسة، وارتفاع شأن البابا في أوربا[٣].

(١) تعددت الآراء والنظريات حول بداية العصور الوسطى ونهايتها، فقد طرح الباحثون منذ القرن الثامن عشر أحداثًا عديدة وتواريخ شتى لبداية العصور الوسطى.

فالبعض حدد سنة ٢٨٤م بداية العصور الوسطى باعتبارها أنها السنة التي تولى فيها دقلديانوس حكم الإمبراطورية الرومانية.

وفريق آخر اعتبر سنة ٣٢٣م – وهي التي اعتلى فيها الإمبراطور قسطنطين الكبير عرش الإمبراطورية– هي البداية الحقيقية للعصور الوسطى.

وأغلب المؤرخين يرون أن سنة ٤٧٦م هي أصلح وأنسب بداية لتاريخ القرون الوسطى الأوربية لأن هذه السنة تعتبر آخر عهد بالإمبراطورية الرومانية القديمة في الغرب.

وقد عدد د/جوزيف نسيم يوسف هذه النظريات وحصر أهمها في اثنتي عشرة نظرية.

كذلك أيضًا اختلف المؤرخون حول تحديد نهاية العصور الوسطى.

فقد رأى البعض أن حركات الإصلاح الديني في أوربا التي بدأت في القرن الرابع عشر تمثل نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة.

ويرى فريق آخر من المؤرخين أن سنة ١٤٥٣م هي التي تحدد نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة، ففي تلك السنة انتهت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا (١٣٣٨– ١٤٥٣م)، هذا إلى جانب أن القسطنطينية انتقلت إلى يد الأتراك العثمانيين في تلك السنة. ومهما كان اختلاف المؤرخين حول السنة التي تبدأ منها العصور الوسطى، وتلك التي تنتهي عندها، إلا أنها من الناحية التقليدية الشكلية تبدأ في القرن الخامس وتنتهي في القرن الخامس عشر الميلادي «راجع في هذا على سبيل المثال: د/جوزيف نسيم يوسف: دراسات في تاريخ العصور الوسطى (ص ١٠– ٣٩)، مؤسسة شباب الجامعة، د/علي الغمراوي: مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط (ص ٢٧٥– ٣٤١) مكتبة سعيد رأفت، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٧م».

(٢) د/توفيق الطويل: قصة الصراع بين الدين والفلسفة (ص ١٠) دار النهضة العربية. الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٩م.

(٣) راجع في ذلك، د/سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى (ج١ ص ٥٤، ٥٥) فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى (القسم الأول) (ص ١٠٨، ١٠٩)، ترجمة: محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العريني. دار المعارف. الطبعة السادسة سنة ١٩٧٦م، ول ديورانت: قصة الحضارة مج ٤ ج١ ص ١٠٥ (عصر الإيمان) ترجمة: محمد بدران. لجنة التأليف والترجمة والنشر. الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٣م.

ولذلك سيطرت الكنيسة على التعليم في المدارس، واحتكرت لنفسها تأويل الكتاب المقدس وأدانت كل من جاهر بحقيقة لم تقرها من قبل، ومن لم يذعن لها تحيق به اللعنة.

وساعدها على ذلك أن الملوك والأباطرة سلموا بسياستها في اضطهاد المخالفين[١].

هذا وقد بسطت الكنيسة نفوذها، وفرضت سيطرتها أيضًا على الجامعات الأوربية[٢]، وحولتها إلى معاقل للاستبداد وأوكار للرجعية[٣] حيث أدركت أن في خروج هذه الحركة التعليمية من قبضتها تعريضًا لسلطانها وتعاليمها للخطر والنقد.

ويكفي أن نعرف أن البابوية تمسكت بمبدأ موافقة الأسقف على الطلبة الذين يتقدمون للحصول على درجة الدكتوراة في القانون من بولونيا بإيطاليا، أما باريس فقد ظهر هذا التدخل في التوحيد بين وظيفتي رئيس الجامعة ورئيس أساقفة باريس، بمعنى أن الأخير أضحى مشرفًا على شئون الجامعة[٤].

وكان من المنتظر أن تنتصر الجامعات الأوربية لحرية الفكر- خاصة وأن الذي مهد لنشأتها بطرس أبيلارد[٥] ١١٤٢م صاحب الدعوة إلى تحرير العقل

---

(١) قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص ١٠.

(٢) وذلك منذ إنشائها وقد تم ذلك في القرن الثاني عشر الميلادي حيث ظهرت أولى الجامعات الأوربية في بولونيا بإيطاليا، وفي باريس بفرنسا، وقد تفرعت عن الأولى بقية الجامعات الأوربية في حوض البحر المتوسط، في حين تفرعت عن الثانية جامعات شمال أوربا وغربها التي ظهرت أواخر العصور الوسطى.

ولم ينته القرن الثاني عشر حتى وجد في غرب أوربا خمس أو ست جامعات على الأقل هي جامعات سالرنو، وبولونيا، ورجيو بإيطاليا، وباريس مونتبليه بفرنسا، وأكسفورد بانجلترا (راجع د/سعيد عاشور: الجامعات الأوربية في العصور الوسطى، أوربا العصور الوسطى ج٢ ص١٧٤- ١٨٦، ٣٤٤- ٣٥٦.

(٣) قصة الصراع ص٤٧.

(٤) أوربا العصور الوسطى ج٢ ص٢٤٧.

(٥) وسوف نتحدث عنه فيما بعد.

الأوربي- وتقي دعاتها عدوان خصومها، ولكن الكنيسة كانت إذ ذاك تحتكر العلم وتهيمن على شئونه فسارت الجامعات في ركابها، وأخذت تتلقى الأوامر والتعليمات من رجالها وتلقن طلابها ما يبيحه هؤلاء، وتحبس عنهم ما يحرمونه، ومن هنا نشأت سياسية «التعليم السلمي» الذي جرت عليه الجامعات، وأصبح أساتذة هذه الجامعات لا يعنون بالحقيقة بقدر ما يعنون بالاستجابة لطاعة الكنيسة واعتناق ما تقره من آراء(١).

هيمنت الكنيسة إذن على كل ميادين البحث العلمي، وفرضت عليها ما تراه حقا، وعملت على فرض آرائها بالقوة مستندة في ذلك على سلطانها الديني والدنيوي.

وحسبك دلالة على ذلك أن تفسيرات الكنيسة لنصوص العهد القديم وخاصة فيما يتعلق بقصة الخلق أدت إلى استبعاد علم طبقات الأرض، وعلم الحيوان، وعلم الأنثروبولوجيا من ميادين البحث الحر، وأصبحت الحقيقة- في نظرهم- هي التي تكون في ظاهر نصوص الأنجيل، كما أن تأويلها الحرفي كفيل بمعرفة الناس الوجه الصحيح فيما يبحثون(٢).

وقد أدى هذا إلى القول بآراء علمية غير صحيحة مثل القول بدوران الشمس حول الأرض، ورفض الاعتقاد بأن الجانب المواجه لموطننا من الأرض معمور بالخلائق، والاعتقاد بأن أمراض المسيحيين مردها إلى الشياطين. وما دامت أسباب الأمراض فوق طبيعته فعلاجها من جنسها أي فوق الطبيعي!! هذا وقد اعترضت الدوائر الأكليركية على التطعيم منذ القرن الثاني عشر.

وبالإضافة إلى هذا فإن الكيمياء اعتبرت فنًا شيطانيًا خبيثًا. وقد أدان البابا المشتغلين بها عام ١٣١٧م. وقد سجن روجر بيكون ١٢٩٢م مدة طويلة

(١) قصة الصراع ص٤٧، ٤٨.
(٢) نفسه ص٤٥.

لمجرد نزوعه للبحث العلمي[١].

لقد نصب رجال الدين أنفسهم لمعرفة الحقيقة في كل أمور الدين والدنيا، واعتبروا أن أي مصدر آخر غيرهم وغير ما تحت أيديهم من كتب مقدسة- في نظرهم- لا يعتد به، بل وعاقبوا كل من تسول له نفسه الخروج عليهم.

«كانوا يضيقون ذرعًا بأية معرفة عدا معرفتهم، لا يثقون بأي فكر لم يصححوه ويراقبوه فنصبوا أنفسهم للحد من العلم، الذي كانت غيرتهم منه بادية للعيان، وكان أي نشاط عقلي عدا نشاطهم يعد في نظرهم نشاطًا وقحًا»[٢].

ولذلك وقفت الكنيسة بالمرصاد لكل فكر مخالف لها، ولكل صاحب رأي مغاير لرأي آبائها ورجالها الذين أعطتهم وحدهم سلطان التأويل والتفسير.

تبنت الكنيسة إذن آراء هؤلاء، وأوصدت الأبواب أمام آراء غيرهم، ولم تكتف بذلك بل اضطهدت المخالفين، وقمعت المارقين، وأقامت من أجل هذا محاكم التفتيش[٣] التي استخدمت كل أساليب القهر والتعذيب، والتي تكشف عن وحشية لا يعرف لها مثيلاً، ولذلك اعتبرت من أشنع الوصمات في تاريخ البشرية.

(١) السابق.

(٢) ولز: معالم تاريخ الإنسانية، المجلد الثالث ص٩٠٥، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٧٢م.

(٣) محاكم التفتيش اصطلاح مشتق من كلمة لاتينية بمعنى «يبحث - يتقصى - يفتش» وقد أسسها البابا لوسيوس الثالث (١١٨١- ١١٨٥م) ثم إنوسنت الثالث (١١٩٨- ١٢١٦م) الذي يرتبط اسمه بقيام محاكم التفتيش بصفة رسمية فهو الذي أرسى قواعدها، وأشرف على قيامها وخاصة في مجمع اللاتيراني الرابع سنة ١٢١٥م، واستمرت في قمع الفكر المخالف بالحديد والنار والإرهاب لعدة قرون. عن هذا الموضوع راجع د/إسحاق عبيد: محاكم التفتيش نشأتها ونشاطها، دار المعارف. الطبعة الأولى سنة ١٩٧٨م، قصة الحضارة مج٤ ج٥ ص٩٣- ٩٥، وراجع أيضًا بحثنا عن البابوية وسيطرتها على الفكر الأوربي في العصور الوسطى ص٦٤ حولية كلية أصول الدين بطنطا. العدد الثالث.

«وقد تولت هذه المحاكم مطاردة المارقين وتعذيبهم إلى حد إحراقهم وهم أحياء!!»[١].

كان الأوربيون بين الحين والآخر يظهرون التمرد لكن الكنيسة كانت لهم بالمرصاد بأساليب القهر والقمع.

«لقد ثار الفكر الأوربي مرارًا ولكن الكنيسة كانت تقهره مرة بعد أخرى»[٢].

وهكذا يتبين لنا أن الكنيسة أحكمت سيطرتها، وفرضت رقابتها على كل منافذ الإشعاع للتقدم والمعرفة، وأعاقت كل فكر، وأوقفت كل تقدم، وأوصدت الأبواب التي من شأنها أن تزيد المعرفة وتساعد على الرقي والحضارة.

ولذلك كانت أوربا في تلك العصور في ظلام دامس، وجهل سائد، وكان الفكر العقلي خاملاً، والبحث العلمي راكد وذلك بفعل التعصب المقيت، والتزمت البغيض، وبسبب تلك العقبات التي وضعتها الكنيسة في وجه العلم والعلماء.

* * *

(١) قصة الصراع ص١١.

(٢) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص٤١ سلسلة صوت الحق.

تعليل تعصب الكنيسة ضد المخالفين

إن تفسير هذا الموقف من الكنيسة ليس من الصعب معرفته أو التوصل إليه إذ أن تكوين المسيحية من أديان وفلسفات وثنية مختلفة كان سببًا في تعقيدها وتناقضها ولذلك كانت تخشى من مناقشة عقائدها أو التفكير فيها.

لقد حرفت الديانة التي جاء بها عيسى عليه السلام وذلك بعد رفعه، واستبدلت بها عقائد وطقوس ومبادئ وتقاليد ترجع- كما يقول ولز- إلى عصر أقدم وإلى طراز أدنى عقلية[1].

لقد وقعت في حبائل التأثر بالعقائد الشرقية المختلفة.

«وكذلك أيضًا أوقعها العقل الإغريقي الإسكندري في أحبولته بما جبل عليه من تعقيد ذهني، حتى إذا وقعت الكنيسة في معمعان هذا التطاحن الذي لا مفر منه بين هذه المتفارقات المتناقضة، اضطرت أن تصبح اعتقادية (دوجماتية) تأخذ بالمذهب الاعتقادي الحتمي[2]، ذلك أنها حين يئست من بلوغ حلول أخرى لخلافاتها الفكرية التجأت إلى الاستبداد التعسفي»[3].

«وأصبح قساوستها وأساقفتها على التدريج رجالًا مكيفين وفق مذاهب واعتقاديات حتمية، وإجراءات مقررة وثابتة، حتى إذا ما آن أوان توليهم منصب الكرادلة أو البابوات إذا بهم في العادة كهول قد ألفوا من الكفاح السياسي ذلك الضرب الذي يقصد إلى غاية قريبة مباشرة، ولم يعودوا أهلًا لقبول آراء رحيبة يشمل أفقها العالم بأسره. . . أصبحوا يرغبون في رؤية قوة الكنيسة التي هي قوتهم هم متسلطة على شئون البشر، وكانوا في سبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أي شيء حتى البغض والخوف

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية (المجلد الثالث) ص٩٠٢.

(٢) الاعتقاد الحتمي أو القطعي مجموعة المبادئ التي تعدها الكنيسة صحيحة تتجاوز كل ريب وتلزم كل إنسان باعتناقها ولا تقبل نقاشًا (نفسه هامش المترجم ص٩٠٢).

(٣) نفسه ص٩٠٢، ٩٠٣.

والشهوات المستقرة في قلوب البشر، ونظرًا لأن كثيرًا منهم كانوا على الأرجح يسرون الريبة في سلامة بنيان مبادئهم الضخم، وصحته المطلقة، لم يسمحوا بأية مناقشة فيه، كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون في مخالفة لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم بل لأنهم كانوا غير واثقين منها وكانوا يريدون ممن حولهم موافقتهم على رأيهم لأسباب تتصل بالسياسية»[١].

لقد آمنوا بعقائد معقدة لا تقبل الفهم، لأنها مؤلفة من أديان وفلسفات مختلفة، وفرضوا على الناس الإيمان بها دون نظر أو تفكير فيها، وأقروا ما سمي بالاعتقاد الحتمي أي الاعتقاد الذي لا يقبل الجدل ولا المناقشة.

فلم يكن عند رجال الدين المسيحي مقدرة أو استعداد للدخول في تفاصيل أمور لاهوتية؛ لأنهم يعتبرون أن محاولة تفصيلها وشرحها يزيدها تعقيدًا.

إن الإيمان بما يناقض العقل هو سبب التعصب ضد المخالفين ولذلك علموا الناس (يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك بدون نظر) ووقر في نفوسهم أن السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم[٢].

* * *

---

(١) نفسه ص ٩٠٢، ٩٠٣.

(٢) محمد عبده: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٣٤، ٣٨ ط ثالثة، دار الحداثة - بيروت سنة ١٩٨٨م.

مراحل محاولات تحرر العقل الأوربي من هذه القيود

بدأ العقل الأوربي يفيق من سباته، ويصحو من غفلته، ليقاوم تلك السلطة الكنسية ويحاول خرق تلك القيود التي فرضتها، وفتح الأبواب التي أوصدتها، وتخطي العقبات التي وضعتها، وتجاوز المعوقات التي أحدثتها، محاولاً بذلك الصمود أمام أساليب القهر والوحشية.

عمل العقل الأوربي على إحداث تغيير جذري[١] لما هو سائد في العصور الوسطى تلك التي وصفت بأنها عصور الظلام والاستبداد. لكن هذا التغيير لم يتم دفعة واحدة[٢] ولا بصورة مباشرة وإنما مر بمراحل متعددة، وظهر في صور مختلفة، فمرة تنقد الكنيسة، ومن خلاله تظهر المساوئ والعيوب ويبرز فساد رجال الدين وانحطاط المستوى الأخلاقي لدى القائمين على الكنيسة من رجال الإكليروس، مما يترتب عليه عدم الاقتناع بريادة رجال الكنيسة وكونهم أصحاب المقام الأول في التوجيه والقيادة والفكر.

---

(١) لن نتحدث في هذا البحث على كل ألوان التغيير في أوربا في العصور الحديثة - وإنما سنقتصر على إبراز أهم النتائج التي ولدتها سيطرة الكنيسة على مقاليد الأمور في العصور الوسطى، مع الإشارة إلى حالة الكنيسة وما طرأ عليها من تغيير لأدوارها، وما تولد عنه من: الصراع بين الدين والعلم، والعلمانية، وغيرها، هذا بالإضافة إلى بيان أهم الاتجاهات الفكرية في أوربا الحديثة، وأثر الكنيسة في ظهورها.

(٢) وقد ذكر ذلك المؤرخون فيقول فشر: «ليس من السهل على الباحث أن يحدد تاريخًا فاصلاً بذاته بين العصرين الوسيط والحديث، فالانتقال بينهما حدث بالتدريج، ولم يسر على وتيرة واحدة، ثم هو في بلد ما أسرع وأكمل منه في بلد آخر، هذا إلى أن التحول لم يعمم العالم بأسره بحيث تركه خاليًا من رواسب العصور الوسطى.

ويقول: «ولكن على الرغم من أن التحول قد سار حتمًا بالتدريج فإن التباين الكبير بين العصور الوسطى والعصور الحديثة كان واضحًا بما فيه الكفاية.. من بيئة معادية لحرية البحث إلى بيئة يعيش فيها العالم ويترعرع حيث كانت الكنيسة في القرون الأولى من العصور الوسطى هي وحدها ملاذ الثقافة». أصول التاريخ الأوربي الحديث ص ٧، ١٠ ترجمة: د/زينب راشد، د/أحمد عبد الرحيم مصطفى. راجعه: د/أحمد عزت عبد الكريم، ط دار المعارف سنة ١٩٦٥م.

ومرة أخرى يعظم فيها شأن العلم، وتنشأ الجمعيات العلمية التي تتبنى وجهات النظر العلمية، وتشجع البحث العلمي القائم على المناهج العلمية بعيدًا عن أعين وفكر رجال الدين المسيحي.

وهذا يعني أن التغيير يمكن أن يقال عنه: إنه سار في اتجاهين متوازيين في بعض الأحيان وبعض البلدان الأوربية ومتعاقبين في أحيان وبلدان أخرى.

الاتجاه الأول: نقد الكنيسة ومحاولة إصلاحها.

وسوف نرى فيما بعد هل جاء هذا الاتجاه بفائدة؟ وما مقدارها؟

وهل أعطى ثمارًا على طريق التحرر من الكنيسة؟

وما أثره في نشأة الحركات الإصلاحية المسيحية؟

الاتجاه الثاني: وهو خاص بالعلم.

وقد مهد أصحاب الاتجاه الأول لأصحاب هذا الاتجاه الثاني أن يثوروا على ما تتبناه الكنيسة من مسائل علمية تتعارض مع ما وصل إليه العلماء.

وسوف نرى فيما بعد النتائج المترتبة على هذين الاتجاهين حيث ظهرت هذه النتائج من خلال مراحل متشابكة ومتداخلة مما يصعب ترتيب هذه المراحل ترتيبًا زمنيًا.

* * *

أولاً: نقد الكنيسة

إن أول خطوة في طريق تحرر العقل الأوربي من سطوة الكنيسة وسيطرتها كانت تتمثل في شجاعة بعض المفكرين وجرأتهم في توجيه النقد للبابوية أو لرجال الدين المسيحي بوجه عام[1]، أو أن يمسوا قدسية أو سلطان الكنيسة بسوء، أو على الأقل يظهروا استنكارهم لما تقوم به الكنيسة من أعمال وأنشطة.

أسبابه: وتكمن أسباب النقد في عدة امور نذكر بعضها فيما يلي:

١- تدهور المستويات الأخلاقية، وتفشي حالات الفساد والانحطاط بين رجال الدين المسيحي في العصور الوسطى.

فقد عم الانحطاط وساد- كما يقول الكاتب المسيحي جاد المنفلوطي- ودب في الحياة دبيب الفساد، ومن هامة الرأس إلى باطن القدم أصبحت الكنيسة مريضة، مضروبة بضربة طرية، موسومة بسمة الانحطاط الخلقي، لا فرق بين قائد ومقود، الجميع زاغوا وفسدوا معًا[2].

ثم يقول: «ولسنا مغالين إن قلنا: إن غالبية رجال الدين في تلك الأيام كانوا من مدمني الخمر، مستعبدين للعديد من الخطايا كخطيئة الزنى، وكانوا

---

(١) المسيحية في الغرب قبيل الإصلاح كانت خاضعة لنظام كنسي واحد وهو الكنيسة الكاثوليكية - وفي واقع الأمر كانت إمبراطورية كنسية مترامية الأطراف، عاصمتها روما، ورئيسها البابا المتربع على عرشها وكانت أوربا مقسمة إلى مناطق كنسية، على رأس كل منها رئيس أساقفة، وكل منطقة أو ولاية كانت مقسمة إلى دوقيات كل منها يرأسها أحد الأساقفة، والدوقيات كانت مقسمة إلى أبروشيات، وكل أبروشية على رأسها كاهن، وهكذا كانت هناك شبكة من النظام الكنسي تغطي كل أوربا، كل خيوطها تتجه إلى روما ويمسك بها البابا وكرادلته (راجع د/عزت زكي: تاريخ المسيحية في عصر الإصلاح) ص١٣، ١٤ دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية.

(٢) جاد المنفلوطي: تاريخ المسيحية (المسيحية في العصور الوسطى) ص٣٦ دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية.

يعيشون في بحبوحة من العيش، يسعون وراء المتع الزائلة مهملين القيام بواجبات الخدمة الموكلة إليهم... وكانوا يشترون المناصب بالمال حيث كانت ظاهرة السيمونية[١] متفشية في ذلك الزمان.

ولم يكن الرؤساء أفضل من مرؤوسيهم، بل ربما كانوا أردأ وأشر منهم بكثير، وكانت السيمونية هي الطريق الوحيد للحصول على مناصب الأسقف، وكانت هناك تعريفة محددة للحصول على هذه الوظيفة»[٢].

ولم تكن البابوية بمنجاة من هذه المساوئ التي كانت هي الطابع المميز لحياة الكنيسة عامة في ذلك العصر.

هذا وقد وصلت حالة البابوية في فترة من الفترات- وخاصة في القرنين العاشر والحادي عشر- إلى أحط دركات الانحطاط، فتشوهت الصورة وتلطخت بالكثير من الأمور التي لم تكن تخطر على بال... فبعض الذين شغلوا ذلك المنصب في خلال تلك الفترة لم يكونوا فوق مستوى الشبهات بل إنهم كانوا من ذوي السمعة السيئة، وارتكبوا أفظع أنواع الجرائم وأبشعها[٣].

٢- استغلال رجال الدين لنفوذهم بفرض ضرائب على رعايا الكنيسة وجمعهم الأموال بالطرق غير المشروعة.

(١) السيمونية: شراء المناصب الدينية بالمال وهي نسبة إلى: «سيمون» وهو اسم عبراني معناه: «السامع» وفي الأصل لفظه نفس الاسم «سمعان».

وقد وردت قصة سيمون في الإصحاح الثامن من سفر الأعمال من الفقرة التاسعة إلى الفقرة الرابعة والعشرين، وملخصها: أن سيمون كان ساحرًا وكان يدهش شعب السامرة بسحره حيث كان الناس يتبعونه، وحين زار بطرس ويوحنا هذه البلاد ورأى الناس ما يقومان به (ورأى سيمون أنه بوضع أيدي الرسل يعطي الروح القدس قدم لهما دراهم قائلاً أعطياني أنا أيضًا هذا السلطان حتى أي من وضعت عليه يدي يقبل الروح القدس. فقال له بطرس لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتني موهبة الله بدراهم) أعمال الرسل ٨: ١٨- ٢٠، ولذلك أطلقت السيمونية على كل من يتاجر في الوظائف الكنسية (راجع قاموس الكتاب المقدس ص ٤٩٧، الطبعة السابعة، دار الثقافة سنة ١٩٩١م).

(٢) المسيحية في العصور الوسطى ص٤٠.

(٣) نفسه ص٤٠، ٤١.

هناك اتهامات كثيرة ضد البابوية- كما يقول جون لومير- لكن التهمة الأكثر انتشارًا كانت الاستغلال المالي، ضج الناس بالشكوى من أعلى حاكم إلى أدنى قروي بأن الكنيسة عاشت للمال، ومن داخل الكنيسة ضغط البابا على الأساقفة الذين عصروا الكهنة الذين هم بدورهم عصروا الشعب[١].

ثم يقول: «يبدو أنهم في كل يوم اخترعوا طرقًا جديدة لتنمية دخول الكنيسة فقد كان هناك محصلون خصوصيون من قبل البابا سافروا إلى الأرياف كانوا يطالبون بعُشر دخل الكاهن، ويحصلون على كل حصيلة الكاهن عن السنة الأولى من خدمته، وبالطبع كانت المراكز والوظائف الكنسية لمن يدفع المبلغ الأكبر، والضرائب كانت تفرض سنويًا على رؤساء الدول، وإذا سافر البابا أو احتفل بأحد الأعياد حينئذ تفرض لذلك ضريبة إضافية، يقدرون أن الكنيسة في فرنسا وألمانيا استولتا على ما يتراوح بين ثلث إلى نصف كل أملاك الدولة، في إنجلترا أتلفت الكنيسة وصرفت حوالي ٢٥٪ من الدخل القومي».

في هذه الفترة من التاريخ لم يعد الناس يفكرون في الكنيسة على أنها مؤسسة للخدمة أو الإلهام لكن بالأحرى كملكية خاصة بكبار رجال الإكليروس وجدت لتجلب لهم امتيازات ومكاسب اقتصادية[٢].

لقد تاجرت الكنيسة بنفوذها وفرضت ضرائب على جميع أديرة الرجال والنساء وعلى الكنائس الداخلة في دائرة الحماية البابوية مباشرة. وفرض البابوات على كل أسقف في أول اختياره لمنصبه ضريبة تعادل من الوجهة النظرية جميع إيراده في السنة الأولى، وذلك نظير تثبيته في منصبه، وكذلك كانت مبالغ كبيرة تنتظر ممن يعينون رؤساء أساقفة، وكان يطلب إلى كل بيت من البيوت المسيحية أن يرسل إلى الكرسي البابوي جزءًا من دخله[٣].

---

(١) جون لومير: تاريخ الكنيسة ج٤ ص٣٧ ترجمة: عزرا مرجان. الطبعة الأولى، دار الثقافة. سنة ١٩٩٠م القاهرة.

(٢) نفسه ص٣٧، ٣٨.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة مج٤ج٥ (عصر الإيمان) ص٧٠، ٧١ ترجمة: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

وتبع ذلك مشروع بيع صكوك الغفران الذي أدر على رجال الدين مالاً كثيرًا. وسوف نرجئ تفاصيل هذا الموضوع إلى حين الحديث عن حركة الإصلاح البروتستانتي لأنه اعتبر من بين الأسباب المباشرة لهذه الحركة.

٣- يضاف إلى هذا أيضًا طبيعة المعتقدات المسيحية ومخالفتها أو مناقضتها للعقل البشرى كعقيدة التثليث، وطبيعة المسيح، والتجسد، والاستحالة وغيرها.

٤- كان رجال الكنيسة يضيقون ذرعًا بأي رأي مخالف لهم، وأي فكر مناقض لأفكارهم.

إن تعصب رجال الدين واستبدادهم بالرأي، وبغضهم لكل فكر مخالف، ومقتهم العلماء لا شك كان سببًا من أسباب نقد الكنيسة.

وسوف نعود إلى تفاصيل هذين السببين حينما نتحدث عن موضوع النزاع بين الدين والعلم.

اطواره:

-وتبعًا لهذه الأسباب فإن النقد مر بأطوار عديدة.

وابتدأ الأمر بأن اقتصر النقد المتداول في شأن الكنيسة على أمور أخلاقية ومادية ليس غير، فإن ثراء كبار رجال الإكليروس وترفهم، والضرائب البابوية الفادحة كانت رأس أسباب الشكوى... ولم يتطور النقد فيغدو أكثر عمقًا، وأشد تدميرًا إلا بعد ذلك من الزمن، يوم أخذ يوجه سهامه إلى الحقيقة المركزية في تعاليم الكنيسة[١].

بل وأكثر من هذا تطور النقد الأوربي في العصر الحديث ليصبح نقدًا للدين بوجه عام.

---

(١) ولز: معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث ص٩٧٥ ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والنشر سنة ١٩٧٢م، القاهرة.

بعض الحركات التي نقدت الكنيسة

هناك حركات عديدة ظهرت في أوربا لتعارض الكنيسة وتظهر عيوبها ومساوئها وتنتقدها. ففي الفترة من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر ظهرت أكثر من حركة مناهضة للكنيسة[١].

حيث أعلنت هذه الحركة سخطها على الكنيسة، واحتجت على ما فرضته من قيود، ووجهت السهام النقدية إليها في محاولة لإصلاحها، وإصلاح أحوال رجال الدين القائمين عليها.

وسوف نتحدث فيما يلي عن بعض هذه الحركات.

الكاثاريون:

منها على سبيل المثال جماعة «الكاثاريين»[٢] ومعناها الأطهار.

وكانوا يعرفون بـ «الألبيجنيين»[٣] اسم المنطقة الفرنسية التي كانوا يعيشون فيها، كذلك وجدوا في «كولون» بألمانيا، وشمال إيطاليا وأسبانيا[٤].

وكانت عقائد الكاثاريين وشعائرهم- كما يذكر ول ديورانت- من ناحية عودة إلى العقائد والأساليب المسيحية الأولى، وكانت من ناحية أخرى ذكرى غامضة للأريوسية[٥] التي انتشرت في فرنسا الجنوبية في عهد القوط

---

(١) حيث أحصى بعض المؤرخين في القرن الثالث عشر مائة وخمسين حركة (قصة الحضارة مج٤ ج٥ ص٧٥).

(٢) الكاثاري: لفظ مشتق من كلمة يونانية معناها (الطاهر). نفسه ص٧٨.

(٣) نسبة إلى بلدة ألبي التي يكثرون فيها بنوع خاص (نفسه ص٧٨).

(٤) جون لوريمر: تاريخ الكنيسة ج٤ ص٤٢.

(٥) نسبة إلى أريوس الذي كان يعلم أن المسيح ليس إلهًا وإنما هو عبد مخلوق لله، وقد حدثت مناقشات بينه وبين اثناسيوس بطريرك الإسكندرية الذي كان يقول بألوهية المسيح، وبسبب هذا الخلاف دعا قسطنطين إلى عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م وهو المجمع المسكوني الأول، وقد تمخض عن هذا المجمع أسس العقيدة الثالوثية، وقانون الإيمان المسيحي، وكان لقسطنطين دور كبير في تقرير هذه العقيدة (راجع رسالتنا للدكتوراة تأثر المسيحية بالأديان الوضعية. الباب الأول).

الغربيين ومن ناحية ثالثة نتيجة للآراء المانوية[١] وغيرها من الآراء الشرقية. وكان من بينهم رجال دين يرتدون ثيابًا سوداء، ومطارنة يسمون «الكمل» يُقسمون وقت ترقيتهم لهذه المناصب أن يتخلوا عن آبائهم، وأزواجهم، وأبنائهم، وأن يهبوا أنفسهم لله والإنجيل... وألا يقربوا امرأة قط، ولا يقتلوا حيوانًا، ولا يأكلوا اللحم أو البيض أو منتجات الألبان، وألا يطعموا إلا السمك والخضر، وكان أتباعهم يتعهدون بأن يقسموا فيما بعد على الإيمان بهذا[٢].

وتقسم فلسفة الكاثاري الدينية الكون كما تقسمه المانوية إلى الخير والشر، وهي تعد المادة كلها شرًا بما فيها الصليب الذي مات عليه المسيح- كما يعتقد النصارى- والقربان المقدس.

ويصف أعداء الألبيجينيين أولئك القوم بأنهم يرفضون العشاء الرباني والقداس، وتعظيم الصور المقدسة، والتثليث، ولا يؤمنون بأن المسيح ولد من عذراء، وعندهم أن المسيح من الملائكة، ولكن ليس هو الله.

ويقال عنهم إنهم ينكرون الملكية الخاصة، ويأملون أن تُقسَّم الطيبات بين الناس بالتساوي، وقد اتخذوا «عظة الجبل»[٣] أساسًا لمبادئهم الأخلاقية، وكانوا يعلمون أن يحبوا أعدائهم، وأن يعنوا بالمرضى والفقراء، وألا يقسموا قط، وأن يستمسكوا على الدوام بالسلم، وكان يقال لهم إن العنف يتنافى مع

(١) المانوية نسبة إلى ماني بن فانك الفارسي ولد سنة ٢١٥ أو سنة ٢١٦ بمدينة إكباتانا العاصمة الميدية القديمة وكان يزعم بأن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا، ولن يزالا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم (راجع الشهرستاني: الملل والنحل ج١ ص٢٤٤ تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط الحلبي سنة ١٩٧٦م، د/بركات دويدار: الوحدانية ص٥٧ ط مطبعة السعادة، نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٧م، د/فتحي الزغبي: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام ص٥٧٢ وما بعدها ط. أولى، مطبعة غباشي سنة ١٩٨٨م.

(٢) قصة الحضارة مج٤ ج٥ ص٧٨، ٧٩.

(٣) وقد وردت موعظة المسيح على الجبل بالقرب من كفر ناحوم في إنجيل متى ٥: ١-٨:١٢، وإنجيل لوقا الأصحاح السادس ٦: ٢٠-٤٩.

الخلق الكريم، ولو كان موجهًا للمخالفين، وإن عقوبة الإعدام من أكبر الجرائم، وإن على الإنسان أن يوقن وهو مطمئن أن الله سينتصر آخر الأمر على الشر من غير أن يستخدم وسائل شريرة[١].

ولم يكن في هذه الفلسفة الدينية نار ولا مطهر[٢] بل إن كل نفس ستنجو بعد أن تتقلب في عدة أدوار من التناسخ تطهرها من آثامها، ولا بد للإنسان أن يموت وهو طاهر لكي يصل إلى السماء، ولهذا كان عليه أن يتلقى من قس مسيحي القداس الأخير الذي يتم به تطهير الروح- كما يعتقدون- من آثامها.

وكان الكاثاريون يؤجلون هذا القداس إلى مرضهم الأخير في ظنهم، وكان من أكبر البلايا- عندهم- أن يشفى الشخص من مرضه بعد أن يقوم بمراسمه، وكان الفلاسفة الألبيجينيون- كما يقال عنهم- يعملون لمنع هذه الكارثة بإقناع الكثيرين من المرضى الذين يشفون بأن يميتوا أنفسهم جوعًا ليرقوا إلى السماء، ويقال أيضًا: إنهم كانوا في بعض الأحيان يميتون المريض خنقًا برضاه حتى لا يكون ثمة مجال لاحتمال شفائه من مرضه الأخير[٣].

هذا عن أهم أفكارهم وعقائدهم وشعائرهم.

ويلاحظ أنها منقولة عن أعدائهم- حيث ضاع وتلف ما كتبوه عن

---

(١) قصة الحضارة مج٤ ج٥ ص٧٨، ٧٩.

(٢) كانت تعاليم الكنيسة الكاثوليكية تعلن أنه بالاعتراف أمام الكاهن، وقيام المعترف بما يوصيه به الكاهن من أعمال كفارية، وبإعلان الحل أو غفران الخطايا يحصل المعترف على رفع جرم الخطايا عنه وبالتبعية يرفع عنه كذلك قصاصها الأبدي - كما يعتقدون - لكن بعد ذلك يبقى ما كانوا يطلقون عليه «العقاب الزمني للخطيئة» والجزء الرئيسي من هذه العقوبة هو آلام المطهر التي يجب أن يجتازها ويعانيها كل من يخطئ وهذه الآلام نوع من العقوبة عن طريقها تتطهر نفس الإنسان- كما يرون- لكي تصبح أهلا للدخول إلى النعيم الأبدي، وقد علمت الكنيسة الكاثوليكية بأن لها السلطان لتقصير فترة بقاء نفس الإنسان في المطهر إذا قام ببعض الالتزامات التي تفرضها عليه في أثناء فترة حياته على الأرض، وكانت الكنيسة تمنح هؤلاء غفرانات تخفف عنهم عقوبة المطهر وآلامه، وكانت تباع لقاء قدر من المال (راجع المسيحية في العصور الوسطى ص٩٨).

(٣) قصة الحضارة مج٤ ج٥ ص٧٩، ٨٠.

أنفسهم- وذلك فإن التسليم الكامل بها محل نظر أو شك.

أما عن موقفها من الكنيسة: فقد كان موقفًا متشددًا حيث وجهت إليها نقدًا موجعًا وأنكرت أن الكنيسة كنيسة المسيح، وقالت إن بطرس تلميذ المسيح لم يأت قط إلى روما ولم يؤسس البابوية[١]، وأن البابوات خلفاء الأباطرة، وأن المسيح لم يكن له ملك ولا مال، ولكن كبار رجال الدين المسيحيين من ذوي الثراء العريض[٢].

وما من شك- كما يقول الكاثاري- في أن رؤساء الأساقفة، والأساقفة ذوي الأملاك الواسعة، والقساوسة الدنيويين... هم الزنادقة الأقدمون عادوا إلى الحياة من جديد، وأن الكنيسة الرومانية هي رمز الفساد، وأن رجال الدين هم زمرة الشيطان، وأن البابا هو المسيح الدجال، وكانوا يندون بالداعين إلى الحروب الصليبية، ويصفونهم بأنهم قتلة، وكان الكثيرون منهم يستهزئون بصكوك الغفران وغيرها من الأمور التي فرضها رجال الدين[٣].

إنهم نقدوا الكنيسة نقدًا لاذعًا وأظهروا الشك في صحة مبادئ روما في التفسير الصحيح للكتاب المقدس، وكانوا يرون أن عيسى ليس ابنًا لله[٤].

---

(١) يدعى بابوات روما أنهم خلفاء لبطرس - تلميذ المسيح- فهو مؤسس الكنيسة الرومانية - في نظرهم- وأنه أول من جاء بالمسيحية إلى روما ولقى بها من الأذى ما لقى حتى قتل مصلوبًا.

وهذه الدعوى فيها نظر، فالعهد الجديد بالرغم من أنه يتحدث بالتفصيل عن حياة بطرس ونشاطه التبشيري إلا أنه لم يذكر شيئًا عن ذهابه إلى روما أو وجوده فيها وزيارته لها، كما لم يؤكد التاريخ شيئًا من ذلك، لذلك يقول د/القس توفيق صالح (ووصف فيها المؤرخون كيفية سجنه وصلبه بالتفصيل غير أنه لا يستطيع أحد تأكيد أين؟ ومتى؟ كان ذلك بالضبط) قاموس الكتاب المقدس ص ١٧٧. (ويذهب بعض ثقات العلماء - كما يقول حبيب سعيد - أن بطرس لم يذهب إلى روما إطلاقًا) تاريخ المسيحية (فجر المسيحية) ص٤٦ دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية سنة ١٩٧٧م راجع أيضًا بحث (البابوية وسيطرتها على الفكر الأوربي في العصور الوسطى) ص١٣- ١٥.

(٢) قصة الحضارة مج٤ ج٥ ص ٧٩، ٨٠.

(٣) نفسه ص٨٠، ٨١.

(٤) معالم تاريخ الإنسانية (المجلد الثالث) ص ٩٠٤.

انتشرت هذه الجماعة انتشارًا كبيرًا في بعض بلدان أوربا وكان لها أتباع كثيرون. وربما يرجع ذلك إلى شجاعتهم في نقد رجال الدين وجرأتهم في مخالفة الكنيسة، والتنديد بالفساد الأخلاقي الذي تفشى بين البابوات والأساقفة ورجال الإكليروس.

وقد علل «جون لوريمر» انتشار هذه الجماعة بقوله: بسبب مستوياتهم الأخلاقية الرفيعة وشجاعتهم وتضحيتهم الذاتية ربحوا أتباعًا كثيرين من أفراد الشعب[١].

قاومت الكنيسة هذه الجماعة مقاومة شديدة ورأت في وجودها خطرًا على كيانها، ولذلك لما جلس البابا إنوسنت الثالث على كرسي البابوية عام ١١٩٨م- وهو الذي كان له دور كبير وأساسي في نشأة محاكم التفتيش بسبب هذه الجماعة- رأى في وجود هذه الجماعة وانتشارها خطرًا محدقًا بالكنيسة فأصدر الأمر بقمعهم وبشن حملات ضارية عليهم[٢].

وكتب إنوسنت الثالث بعد شهرين من توليته إلى رئيس أساقفة أوتشى في غسقونية يقول:

إن قارب القديس بطرس الصغير تتلقفه العواصف، وتتقاذفه أمواج البحر ولكن أشد ما يحزنني ويقض مضجعي... أن قامت في هذه الأيام فئة لم نر لها فيما مضى مثيلاً في تحررها من جميع القيود، وفي شدة أذاها، فقد ارتكبت أخطاء لا يرتكبها إلا الشياطين، وأخذت توقع نفوس السذج من الناس في حبائلها، وتفسد بخرافاتها وبدعها معاني الكتاب المقدس، وتحاول أن تهدم وحدة الكنيسة الكاثوليكية، وإذا كان هذا الوباء قد أخذ ينتشر في غسقونية والأقاليم المجاورة لها، فإنا ندعوكم أنتم والأساقفة زملائكم إلى

---

(١) تاريخ الكنيسة ج٤ ص ٤٢.

(٢) راجع بحث البابوية ص ٦٤ وما بعدها.

مقاومته بكل ما أوتيتم من قوة... وقد أصدرنا إليكم هذا الأمر القوي النافذ أن تقضوا على هذه الفئات الملحدة بكل ما تستطيعون من الوسائل، وأن تخرجوا من أسقفيتكم كل من أصابهم دنسها... وفي وسعكم إذا اضطررتم أن تجعلوا الأمراء والشعب يقضون عليهم بحد السيف[(١)].

وقد صورت المراجع التاريخية والمسيحية، الحملات التي شنها رجال الدين المسيحي ضد هذه الجماعة بصورة بشعة.

فعلى سبيل المثال يذكر الكاتب المسيحي جاد المنفلوطي أن الحرب ضد هؤلاء اتسمت بقسوة بالغة، ووحشية منقطعة النظير، ويكفي أن نعرف أنه بتحريض البابا والسلطات الدينية تم تجنيد جيش قوامه نصف مليون رجل زحفوا على المناطق التي كان يقيم فيها الألبيجيون ويمارسون فيها نشاطهم، فسلبوها، وأشاعوا الخراب أينما حلوا، وعندما وقعت في أيديهم معاقل الألبيجينيين لم يرحموا امرأة، ولا طفلاً، ولا شيخًا، ولم ينج منهم أحد إنهم أعملوا فيهم حرقًا وتقتيلاً بلا رحمة ولا شفقة، والأمر المؤسف حقًا هو أن هذا كله فعلوه باسم الدين[(٢)].

ويذكر جون لوريمر أنه حينما أصدر البابا «إنوسنت الثالث» الأمر بقمع الألبيجينيين قامت حملة صليبية بالتعاون مع ملك فرنسا كانت نتيجتها إبادة جماعية إذ انتهت هذه الجماعة في الواقع بمذبحة، ففي مدينة «بيزيير» قتل بحد السيف أكثر من سبعة آلاف من الرجال والنساء والأطفال[(٣)].

وصور «ولز» هذه الحملات بتصوير قريب مما سبق لكنه يؤكد على صحة ما حدث تأكيدًا لا شك فيه فيقول: ومن ثم نرى مشهدًا يبدو فيه إنوسنت الثالث وهو يحرض على حرب صليبية ضد هاته الشيع، ويأذن لكل نذل زنيم

---

(١) قصة الحضارة مج٤ ج٥ ص٨٣.

(٢) المسيحية في العصور الوسطى ص ١٤٣، ١٤٤.

(٣) تاريخ الكنيسة ج٤ ص ٤٢.

أو متشرد أثيم بأن ينضم إلى الجيش وأن يعمل السيف والنار، واغتصاب الحرائر، ويرتكب كل ما يمكن أن يتصوره العقل من أنواع انتهاك الحرمات... والقصص التي تروى عن هذه الحرب الصليبية تحكي لنا من أضرب القساوة والنكال البشع ما يتضاءل إزاء بشاعته قصة أي قتل للمسيحيين على أيدي غيرهم، وهي فوق هذا تسبب لنا رعبًا مضاعفًا لما هي عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها[١].

الولدانيون:

الولدانيون من الحركات التي جاهرت بنقد الكنيسة، وعارضت آرائها، وأظهرت السخط على رجال الدين، ونددت بفسادهم ومساوئهم.

مؤسس هذه الجماعة بطرس والدو المتوفى سنة ١٢١٧م وكان تاجرًا من ليون في فرنسا[٢].

«لم يكن يقل عن الآخرين مضايقة للكنيسة؛ لأنه كان ينعى على رجال الدين ثرائهم وترفهم»[٣].

«واصطبغت هذه الحركة تدريجيًا صبغة معادية لرجال الدين، ونبذتهم جميعًا، وأنكرت صحة العشاء الرباني الذي يقدمه قس آثم، وعارض بعض الأعضاء صكوك الغفران، وعقيدة المطهر»[٤].

وقد نال بطرس والدو ما نال سابقيه من الاضطهاد والتعذيب، وصدر في عام ١١٤٨م قرار بحل هذه الجماعة. قبل إنوسنت الثالث في الكنيسة عام ١٢٠٦م فئة منها- بمعنى أنه عفى عنهم وقبلهم أعضاء في الكنيسة بعد أن رجعوا عن أفكارهم وتابوا عنها- أما كثرتها الغالبة فقد أصرت على آرائها

(١) معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث ص ٩٠٤، ٩٠٥.
(٢) تاريخ الكنيسة ج٤ ص ٤٣.
(٣) معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث ص ٩٠٤.
(٤) قصة الحضارة مج٤ ج٥ ص٧٦.

الخارجة على الدين المسيحي، وانتشرت من فرنسا إلى أسبانيا وألمانيا.

قاومت الكنيسة هذه الحركات، وأحرقت آلاف الأشخاص من أتباع «والدو»[١].

تعقيب:

هذه هي بعض الأمثلة لوصف اتجاه النقد العام للكنيسة الذي تولد نتيجة سيطرة الكنيسة على مقاليد الأمور، وتعصبها ضد الفكر المخالف.

والواقع أن هذا النقد كان هو المحرك لتلك الحركات الإصلاحية التي ظهرت فيما بعد تنادي بإصلاح الكنيسة. فهو الذي حدا ببعض المفكرين المسيحيين أن يتجرءوا أكثر ويوجهوا سهامهم النقدية صوب الكنيسة، ويجهروا بعدم الثقة بأمور آمنت بها الكنيسة وفرضتها على الناس فرضًا طوال فترة العصور الوسطى مثل: المطهر، وصكوك الغفران، وسلطة البابا، وأسلوب نظام الأسرار الكنسية المقدسة- عندهم- وغيرها.

وقد ينظر إلى هذا النقد بمنظورين:

الأول: يرى فيه أنه ينادي بإصلاح الكنيسة ولذلك فهو ليس خروجًا على الكنيسة بقدر ما هو إصلاح لها.

الثاني: أن النقد في حد ذاته للكنيسة- في تلك العصور- أمر يستوجب التوقف والنظر خاصة إذا علمنا أنه في تلك الفترة- فترة العصور الوسطى- لم يكن يجرؤ أحد على مخالفة الكنيسة أو الخروج عليها، ولذلك يعد هذا النقد بمثابة الانتصار على الواقع المتحجر، والعقل المتسلط.

وسواء أكان هذا المنظور أم غيره فإن ما ينبغي التأكيد عليه هنا في هذا المجال هو أن النقد كان موجهًا لأمرين:

١- الكنيسة ورجال الدين القائمين عليها.

---

(١) نفسه ص ٧٦، ٧٧.

٢- ما تنادي به الكنيسة من عقائد وأفكار.

وهذا يعني أن النقد في حد ذاته لم يقصد به الإصلاح فقط.

ولذلك يمكن اعتباره ممهدًا لحركة الإصلاح الديني الأوربي ولغيرها من الاتجاهات الفكرية الحديثة والتي لها صلة من قريب أو بعيد بالدين.

أمر آخر يستوجب التوقف والنظر وهو أنه إذا كان رجال الدين سببًا في النقد، فإن العقائد المسيحية وما تنطوي عليه من تصادم مع العقل كانت سببًا أيضًا في نقدها، بل وإنكارها في بعض الأحيان، كما هو الحال عند الكاثاريين الذين أنكروا التثليث ورفضوا القول بأن المسيح هو الله.

مما يعني أن الدين المسيحي بما يحتوي على عقائد معينة هو سبب من أسباب النقد والخروج على الكنيسة وربما على الدين أيضًا. وهو أمر خاص بهذا الدين وراجع إليه وحده ولا ينسحب بالطبع هذا الحكم على غيره من الأديان التي لا تشتمل ولا تحتوي على هذا التناقض.

* * *

ثانيًا: بوادر الصراع بين الدين والعقل

لا شك أن إعاقة الكنيسة للفكر في العصور الوسطى كانت سببًا في أن حل الظلام في أوربا، وساد الجهل، وأصيب العقل الأوربي بنوع من الفتور والخمول والكسل، مما كان له أثره في موقف العقل من الكنيسة وتعاليمها فيما بعد.

وفي تلك الفترة الأولى من العصور الوسطى لم يكن هناك عداء أو نزاع بين الدين والعقل حيث «مسالمة العقل للكنيسة، وانسياقه في ركابها والتبشير بتعاليمها»[١] دون نقد أو مناقشة خوفًا من سلطانها، واتقاءً لشرورها، وحرصًا من الأفراد على حياتهم من التنكيل والاضطهاد والتعذيب.

وقد شرع العقل الأوربي منذ القرن الثاني عشر في أن يستيقظ من سباته، ويفيق من غفلته، ويختط لنفسه طريقًا يعبر فيه عن نفسه، ويكافح فيه من أجل تغيير الواقع الذي كان سائدًا بفعل رجال الدين المسيحي.

وحينما هب العقل ليحقق لنفسه هذا اصطدم بالكنيسة ورجالها وتعاليمها، فلم يكن بد من أن يحدث نزاعًا بين أصحاب الفكر، ورجال الدين، وبالتالي لا بد وأن يحدث صراعًا بين ما تنتجه عقول المفكرين من علم، وبين ما تؤمن به الكنيسة من دين متمثل في مجموعة من العقائد والشرائع.

يقول توفيق الطويل: «فلما أقبل القرن الثاني عشر، أفاقت أوربا المستغرقة في سباتها على دعوة جديدة لا تساير روح العصر نادى بها «أبيلارد» وطالب فيها بتحرير العقل من كل قيد واعتباره الحَكَم الذي يفصل في كل رأي، ويعرض بالمناقشة الحرة حتى لحقائق الدين، وتعاليم الكنيسة المقدسة»[٢].

(١) قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص ٩٥.

(٢) نفسه ص ٩٨، ٩٩.

هناك أكثر من شخصية بارزة في تلك الفترة مثل:

بطرس أبيلارد (١٠٧٩- ١١٤٢م)، أنسلم (١٠٣٣- ١١٠٩م)، ألبرتس ماجنوس (١٠٩٣- ١٢٨٠م)، وتوماس أكونياس (١٢٢٥- ١٢٧٤م)[١].

وأبرز هؤلاء للتعبير عن هذه الروح في تلك الفترة هو بطرس أبيلارد ولذلك سنتحدث عنه بالتفصيل.

هو فيلسوف فرنسي، يعد من أشهر رجال القرن الثاني عشر في علم الجدل[٢]، كما أنه صاحب فلسفة الشك والتشكك في كل شيء حتى في طبيعة المسيح[٣].

ولذلك نرى البعض- كما يذكر د/ عبد الرحمن بدوي- يرتفعون به كل الارتفاع فيجعلونه أعظم شخصية في العصور الوسطى من حيث إيمانه بالعقل دون أن يحسب حسابًا للنقل ولا معتقدات الكنيسة[٤].

أما عن أقواله وآرائه فقد قسمها الدارسون إلى قسمين:

قسم يتصل باللاهوت أو على الأخص بالدين المسيحي.

وقسم يتصل بالمنطق والفلسفة بوجه عام[٥].

وسنكتفي بالإشارة إلى القسم الأول لأنه وثيق الصلة بموضوع البحث.

---

(١) وقد تحدث «ولز» عن هؤلاء وغيرهم تحت عنوان (العلم يستيقظ من سباته). معالم تاريخ الإنسانية، المجلد الثالث ص ٩٩٧- ١٠١٠.

(٢) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ص ١٠٣، الطبعة الأولى، دار الكاتب المصري سنة ١٩٤٦م القاهرة.

(٣) د/جوزيف نسيم يوسف (في تعليقه على كتاب: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة. لمؤلفه الإنجليزي كولتون، هامش ص ٢٢٠) ط ثانية دار المعارف سنة ١٩٦٧م، القاهرة.

(٤) د/عبد الرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطى ص ٨٠، ٨١، الطبعة الثالثة. وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم، بيروت سنة ١٩٧٩م.

(٥) نفسه ص ٨١.

وأشهر كتبه- في اللاهوت- كتاب «مقدمة إلى اللاهوت»[١] وكتاب «نعم ولا»[٢] الذي أثار الجدل والنقاش، ويعد أشهر كتبه على الإطلاق.

وفيه يضع أبيلارد جنبًا إلى جنب أقوالاً متناقضة قالها آباء الكنيسة الأولون- في المسائل اللاهوتية- وقد أوضح ما بينها من تناقض[٣].

ويحتوى هذا الكتاب على مائة وسبعة وخمسين سؤالاً[٤] تشمل أهم العقائد الأساسية للدين المسيحي، وقد وضعت في عمودين متقابلين تحت كل سؤال طائفتان من الأقوال إحداها تؤيد الرد الإيجابي، والأخرى تؤيد الرد السلبي، وكلتاهما مقتبسة من الكتاب المقدس، أو من آباء الكنيسة، أو من الآداب اليونانية الرومانية القديمة[٥].

---

(١) نفسه، نفس الصفحة. وقد طالب فيه بتنصيب العقل حكمًا في المشكلات الدينية (عبده فراج: معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى ص ١٨٤ الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٦٩م).

(٢) ونجد أول ذكر لهذا الكتاب في رسالة كتبها رجل من سانت تييري يدعى «وليم» إلى أحد رجال الدين المسيحي برنار (١١٤٠) يصف له فيها ذلك الكتاب بأنه كتاب مريب يوزع سرًّا بين تلاميذ أبيلارد والمتشيعين له، ثم اختفى هذا الكتاب بعدئذ من التاريخ حتى عام ١٨٣٦م حين كشف فكتور كوزن المخطوط بمكتبة في أفرانش (قصة الحضارة مج٤ ج٦ ص٧٤) وفي تعليق (المؤرخ الهولندي يوهان هويز نجا) على عنوان الكتاب يقول (وماذا ينبغي للمرء أن يقول في عبارة أبيلارد الشهيرة (نعم ولا) التي أثارت ذلك القدر الضخم من عدم الثقة بين معاصريه... إنها لتحوي بذور منهج كامل في فقه اللغة يطبق على الكتب المقدسة - المسيحية- ومأثورات الروايات- عندهم- وفيها يثير الرجل كل لون من ألوان الشك: فهل النص محرف؟ وهل أخطأ الكاتب؟ أم هل أساء الناس فهمه؟)، يوهان: أعلام وأفكار نظرات في التاريخ الثقافي ص٢٢٣. ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: د/زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢م، القاهرة.

(٣) نفسه، نفس الصفحة، راجع أيضًا: كراوذر: صلة العلم بالمجتمع ج١ ص٢١٠. ترجمة: حسن خطاب، مراجعة: محمد مرسي أحمد، مكتبة النهضة المصرية.

(٤) بينما يذكر يوسف كرم أن أبيلارد يعرض في كتابه مائة وخمسين مسألة لاهوتية (تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ص ١٠٤).

(٥) قصة الحضارة مج٤ ج٦ ص٧٤. راجع أيضًا: عبده فرج: معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى ص ١٨٣.

أما عن «هدف أبيلارد» من عرض هذه المسائل اللاهوتية بهذه الصورة فيبدو أن هناك اتجاهين:

فريق يرى: أن أبيلارد لم يرد من هذا حلًّا لهذه المسألة بل أراد إثبات أن النقل متناقض ويجب إذن الرجوع إلى العقل.

وفريق آخر يرى: أن أبيلارد إنما ذكر الأقوال المؤيدة والمعارضة من أجل التوفيق(١) بين كلا النوعين من الأقوال(٢).

وعلى كل فإن مقدمته لهذا الكتاب تنتقص من قيمة الاعتماد على آباء الكنيسة لأنها تظهر ما بينهم من تناقض، بل إنها لتظهر تناقض كل منهم لنفسه(٣).

ويلاحظ أيضًا وضوح النزعة العقلية(٤) لدى أبيلارد في هذا الكتاب وفي غيره من كتبه الدينية ومنها كتابه في «التوحيد والتثليث» الذي ألفه سنة ١١١٨م وصودر في عام ١١٢١م في مجمع سواسون(٥).

وقد جلب له هذا الكتاب كثيرًا من المتاعب حيث ندد فيه بمن يؤمنون بما لا يفهمون، وأبرز ما بين القول بالواحد والقول بالثلاثة من تناقض.

لقد انحاز إلى التوحيد ولجأ إلى تأويل الأقانيم(٦).

يقول ول ديورانت: «وإذا كان كتابه (نعم ولا) لم يغضب إلا عددا قليلًا من الناس

---

(١) يقول يوسف كرم: إن أبيلارد إنما جمع هذه النصوص ليثير المسائل ويبعث في النفوس الرغبة في الكشف عن وجه الحق فيها، ثم يحاول التوفيق. تاريخ الفلسفة الأوربية ص ١٠٤.

(٢) فلسفة العصور الوسطى ص ٨١.

(٣) قصة الحضارة مج٤ ج٦ ص٧٤.

(٤) يقول كراوذر: (وقد عكر أبيلارد على المحافظين صفوهم بتطرفه في الثقة بالعقل وحبه للتجديد) صلة العلم بالمجتمع ج١ ص ٢١٠.

(٥) فلسفة العصور الوسطى ص ٨١.

(٦) معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى ص ١٨٣.

لأنه لم يوزع منه إلا عدد قليل من النسخ. «فإن ما حاوله أبيلارد من تحكيم العقل في موضوع التثليث، وهو الموضوع الشديد الغموض لم يكن له ذلك الأثر الضيق الذي كان لهذا الكتاب»، ولم يكن ارتياع الناس محصورًا في القليل منهم وذلك لأنه كان موضوع محاضرته التي ألقاها في عام ١١٢٠م، وموضوع كتابه في وحدة الإله والتثليث»[١].

وقد كتب هذا الكتاب كما يقول هو نفسه: لطلابي لأنهم كانوا على الدوام يبحثون عن المعقول وعن الشروح الفلسفية، ويسألون عما يستطيعون فهمه من الأسباب لا عن الألفاظ دون غيرها، «ويقولون: إنه من العبث أن ننطق بألفاظ لا يستطيع العقل تتبعها، وأنه لا شيء يمكن تصديقه إلا إذا أمكن فهمه أولًا، وإن من أسخف الأشياء أن يعظ إنسان غيره بشيء لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه، ولا يستطيع من يسعى لتعليمهم أن يفهموه» وهو يقول: إن هذا الكتاب (انتشر انتشارًا واسعًا جدًّا) وأن الناس أعجبوا بما فيه من دقة[٢].

وكان الذي أزعج الكنيسة أكثر من أي أمر آخر تبينته عند أبيلارد هو افتراضه أن لا أسرار في الدين، وأن العقائد كلها يجب أن تكون قابلة للتفسير القائم على العقل[٣].

ولهذا وقف منه «برنارد»[٤] موقف العداء حيث كان يرى- شأنه في ذلك شأن رجال الدين المسيحي- «أن من يحاول تفسير الأسرار المقدسة- عندهم- بقواعد العقل والمنطق فهو المعصية والحماقة بعينها، وأن العقل الذي يبدأ بتفسير هذه

(١) قصة الحضارة مج٤ ج٦ ص٧٥، ٧٦..

(٢) نفسه ص ٧٦.

(٣) نفسه ص ٨٦.

(٤) ولد برنارد أوف كليرفو سنة ١٠٩١م وهو من الشخصيات الدينية البارزة في تلك العصور، أسس ديره المعروف في كليرفو وأصبح رئيسًا له، وكان يتمتع بنفوذ كبير ونشاط فائق فهو الذي حسم النزاع البابوي سنة ١١٣٠م. وقضى على الانقسام الكنسي بإعادة إنوسنت الثاني إلى روما، ودعا إلى مقاومة أبيلارد واتهمه بالإلحاد(راجع هامش عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ص ٢٢٢).

الأسرار الخفية سينتهي آخر الأمر إلى تدنيسها»[١].

تصدى رجال الدين لمقاومته، ومقاومة النزعة الجديدة التي ينادي بها، واتهم بالهرطقة[٢].

وانعقد لمحاكمته مجمع سواسون عام ١١٢١م، وأدان المجمع رأيه، من غير أن يستمع إليه وقرر إحراق كتابه الذي تناول فيه عقيدة التثليث، واستدعى أبيلارد، وأرغم على أن يلقي كتابه في النار، ثم سجن في أحد أديرة سواسون، ولكنه عاد إلى مواصلة بحثه في حدود منهجه العقلي، واستطاع «برنارد» أن ينجح في عقد مجلس لمحاكمته في سان عام ١١٤١م، فارتحل أبيلارد وسافر إلى روما مسرعًا مستنجدًا بالبابا، ولكن خصمه قد ألب عليه الأساقفة ورجال الدين، وتمكن- في العام التالي- من استصدار قرار بإدانته، ووافق البابا على حرمه من التعليم، وفرض الصمت الدائم على أبيلارد، وأمر بحجزه في أحد الأديرة حتى مات سنة ١١٤٢م[٣].

اضطهدته الكنيسة إذن وحكمت عليه بالخروج على الدين لأنه حكم العقل في مسائل الدين، ونادى باستخدامه في فهم العقائد المسيحية.

وكان نتيجة لهذا أن أنكر أبيلارد بعض العقائد أو حاول تفسيرها بما رآه رجال الدين المسيحي غير مناسب، وكان هذا نذير خطر بالنسبة لهم حيث إن استخدام العقل في فهم مسائل الدين سوف ينتج عنه الكثير من

---

(١) قصة الحضارة مج٤ ج٦ ص ٨٧.

(٢) الهرطقة: كلمة يونانية الأصل معناها: (الرأي المستقل) أو (الاجتهاد الفردي)، وقد استخدمتها الكنيسة بمعنى المذهب الخارج على المسيحية، وعلى ما تقرر في المجامع المسيحية، وعلى ما يقوله الآباء والقساوسة (راجع د/إسحاق عبيد: الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ص ٣٤، دار المعارف سنة ١٩٧٢م، د/محمود محمد الحويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، هامش ص ٧٥، دار المعارف سنة ١٩٨١م).

(٣) راجع في ذلك: قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص ٩٩، قصة الحضارة مج٤ ج٦ ص٧٦، ٧٧.

المشكلات التي لا تستطيع الكنيسة ولا يستطيع رجال الدين وضع الحلول المناسبة لها.

ولذلك بدأت تظهر في أوربا بوادر النزاع بين العقل والدين.

اسبابه:

وهنا يجب أن ننبه إلى أن هذا النزاع تولد نتيجة لعدة أمور لعل أهمها ما يلي:

١- طبيعة الدين المسيحي واحتوائه على مسائل عقائدية غامضة، وأصول إيمانية معقدة تثير التناقض، وتقف عقبة أمام التفكير العقلي، كما أنها لا توفر للعقل حرية النظر والتفكر فيها لمناقضتها لقواعده.

وهذا يرجع إلى التحريف والتغيير والتبديل الذي لحق بالدين الذي جاء به المسيح عيسى عليه السلام وذلك بعد رفعه.

إن الدين المنزل من عند الله لا يختلف ولا يتناقض مع العقول بل يتواءم معها، ويثيرها وينشطها إلى التفكر والتأمل والتدبر والتصديق.

إنه يجعل من النظر والتفكر وسيلة من وسائل التقرب إلى الله، ويأخذ بأيدي البشر إلى الإيمان والتصديق، لاحتوائه على دلائل وبراهين يمكن إدراكها وفهمها بالعقل.

أما ما أصاب المسيحية من تعقيد في عقائدها، وعدم معقوليتها، وتعارضها مع حقائق الأمور، وتناقضها مع قواعد العقول، فذلك راجع إلى أنها تكونت من عدة أديان وفلسفات وثنية مختلفة، إنهم حرفوا وغيروا وبدلوا ما جاء به المسيح بهذه العقائد الوثنية.

إن المسيحية نتاج مركب من أديان وفلسفات مختلفة.

يقول شارل جنيبير:

«أنشأت الكنيسة مجموعة عقائدية جديدة بالغة التعقيد»[١].

ويقول ول ديورانت: «إن المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنتها، ذلك أن العقل اليوناني المتحضر عاد إلى الحياة في صورة جديدة في لاهوت الكنيسة وطقوسها، وأصبحت اللغة اليونانية التي ظلت قرونًا عدة صاحبة السلطان علي السياسة أداة الآداب والطقوس المسيحية، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية، وساعدت عدة مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على إحداث هذه النتيجة المتناقضة الأطراف، فجاءت من مصر آراء الثالوث... وعبادة أم الطفل... ومنها استمدت الأديرة نشاطها والصورة التي نسجت على منوالها... ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى، ومن سوريا جاءت عقيدة موت الإله وبعثه... وقصارى القول: إن المسيحية كانت آخر شيء ابتدعه العالم الوثني القديم»[٢].

إن ما أصاب المسيحية من تعقيد وعدم إدراك الأفهام لعقائدها إنما هو راجع إلى تكوينها واحتوائها على العديد من العقائد الدينية والفلسفية في أديان وفلسفات وثنية مختلفة.

وقد أقر المسيحيون أنفسهم بتناقض بعض عقائدهم مع حقائق الأمور، وقواعد العقول.

فعن عقيدة التجسد- وهي تعني عندهم أن الله تجسد وظهر في صورة إنسان- يقول القس وهيب عطا الله: **«إن التجسد قضية فيها تناقض مع العقل والمنطق، والحس، والمادة، والمصطلحات الفلسفية، ولكنا نصدق ونؤمن أن هذا**

---

(١) شارل جنيبير: المسيحية نشأتها وتطورها ص ١٢٧، ترجمة: د/عبد الحليم محمود. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

(٢) قصة الحضارة مج٣ ج٣ ص٢٧٥.

ممكن ولو لم يكن معقولًا»[١].

وعن الثالوث يقول القس توفيق جيد: «إن الثالوث سر يصعب فهمه وإدراكه وإن من يحاول إدارك سر الثالوث تمام الإدراك كمن يحاول وضع مياه المحيط كله في كفه»[٢].

وعن الثالوث أيضًا يقول نقولا يعقوب: «لست أحاول الآن تفسير عقيدة لم يستطع تفسيرها الأوائل، ولن يتوصل إلى إدراك كنهها الأواخر»[٣].

ويقول د/ محمد مجدي مرجان- الذي كان مسيحيًا وأنعم الله عليه بالإسلام-: «لقد قمت بمناقشة كثير من الإخوة المسيحيين في مدى فهمهم وتقبلهم لهذه العقيدة، تارة حين كنت محسوبًا في الجماعة المسيحية، وتارة بعد انسلاخي عنها، وكثير من هؤلاء المسيحيين أصدقاء وأقارب يولوني ثقتهم، ويصدقوني الحديث فأخبروني أنهم لا يستطيعون فهم كنه الثالوث المقدس- عندهم- وأن كثيرين منهم يعيشون في صراع بين عقولهم، وموروث معتقداتهم، وحين تناقشت في ذلك مع بعض الآباء الكهنة أخبروني أنه يجب الإيمان بالثالوث دون أي تمحيص أو تفكير، وأنه يلزم التسليم بهذا الاعتقاد الثالوثي تسليمًا مطلقًا، أي تسليمًا أعمى، فعلى المسيحي أن يؤمن ويعتقد أولًا في الثالوث ثم يمكنه أن يجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقد فإذا لم يفلح في ذلك فإنه خير له أن يلغي عقله، ولا يلغي عقائد الآباء وتراث الأجداد، وتعاليم القسوس»[٤]

والواقع أن هذا تصوير معبر عن حقيقة الصراع الداخلي الذي يعانيه من يعتقد بالثالوث، إنه صراع حقيقي بين العقل والعقيدة الموروثة ولا حل له

---

(١) وهيب عطا الله: طبيعة السيد المسيح ص ١٨.

(٢) توفيق جيد: سر الأزل ص ١١.

(٣) نقولا يعقوب: أبحاث المجتهدين في الخلاف بين النصارى والمسلمين ص ٦٦ طبعة المعارف سنة ١٩٠١م.

(٤) د/محمد مجدي مرجان: الله واحد أم ثالوث ص ٧٣، دار النهضة العربية سنة ١٩٧٢.

سوى إلغاء العقل والتسليم الأعمى دون تفكير.

أما أصحاب العقول الذين يتمسكون بحقهم في التفكير والتأمل فلا بديل لهم سوى إنكار هذه العقيدة المسيحية.

وهذا الصراع هو ما أصاب «بطرس أبيلارد» وسيصيب كل صاحب فكر، وهو الذي حدا بـ«أبيلارد» أن يقول لطلابه- حين أراد النظر والتفكير في عقيدة التثليث. وقد ترتب عليه إنكاره لها- إنه من العبث أن ننطق بألفاظ لا يستطيع العقل تتبعها، وأنه لا شيء يمكن تصديقه إلا إذا أمكن فهمه أولاً، وإن من أسخف الأشياء أن يعظ إنسان غيره بشيء لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه، ولا يستطيع من يسعى لتعليمهم أن يفهموه[١].

ولذلك كان جزاؤه من رجال الدين المسيحي أن ناصبوه العداء، وحكموا عليه بالسجن، وفرض الصمت الدائم عليه حتى الموت.

قد يقول قائل: إن الأديان كلها بما فيها الإسلام لا تخلو من مغيبات، أو حقائق لا يستطيع العقل إدراكها.

ولكن يدفع هذا القول أن هناك فارقًا بين ما يحكم العقل باستحالته كالتثليث، وبين ما لا يستطيع العقل إدراكه.

والإسلام وإن كان فيه من الأخير، فإنه يخلو تمامًا من الأول فليس فيه ما يحكم العقل باستحالته أبدًا[٢].

إن الأمر في الإسلام مختلف تمامًا فلا يوجد في الإسلام عقيدة تتناقض مع العقول ولذلك لا يوجد فيه هذا الصراع الذي يعانيه المسيحي.

إن الإيمان في الإسلام يقوم على أساس من التفكير والنظر بل إن القرآن

---

(١) قصة الحضارة مج٤ ج٦ ص٧٦.

(٢) د/سفر عبد الرحمن: العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ص ٤١، الطبعة الأولى، جامعة أم القرى سنة ١٩٨٢م.

نعى على أولئك المقلدين الذين لا يفقهون ولا يعقلون ما يدينون به قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]

٢- هيمنة رجال الدين المسيحي على مقاليد الأمور وبسط نفوذهم على العلم والعلماء، ومقاومتهم للنظر العقلي، وتعصبهم المقيت، وعدم تسامحهم مع المخالفين لهم في الرأي، أو التأويل، وتحاملهم عليهم لدرجة اتهامهم بالخروج على الدين، بل إنهم نصبوا المحاكم لمحاكمتهم وطردهم من الكنيسة، والحكم عليهم بالسجن تارة واللعن والقتل تارة أخرى، وتمثل ذلك فيما سمي بمحاكم التفتيش كما سبق أن ذكرنا.

٣- استبداد الكنيسة بفهم الكتاب المقدس. وهذا السبب ذكره الشيخ محمد أبو زهرة حيث قال[1]:

«لقد احتجزت الكنيسة لنفسها الحق في فهم الكتب المقدسة عندهم، واستبدت بتفسيرها دون سائر الناس، ولا معقب لما تقول في هذا التفسير، أو في أي رأي تبديه، أو أمر تعلنه، وعلى الناس أن يتلقوا قولها بالقبول، وافق العقل أو خالفه، وعلى المسيحي إذا لم يستسغ عقله قولاً قالته، أو مبدأ دينيًا أعلنته أن يروض عقله على قبوله، فإن لم يستطع فعليه أن يشك في العقل، ولا يشك فيما تقوله الكنيسة أو تتبناه، لأن البابا- في نظرهم- هو خليفة المسيح».

لقد كانت تعلن أمورًا ما جاء بها الكتاب المقدس عندهم، وما تعرض له المسيحيون الأولون، ولا المجامع الأولى وهي أمور غريبة جد غريبة بعيدًا عن القبول في أحكام العقل جد البعد، وتلزم المسيحيين بها وتفرضها عليهم فرضًا ومن قال كلمة فيها فالويل له، ينزلونه به في الدنيا ولا ينتظرون حساب الآخرة.

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية ص ٢٠٣، ٢٠٤، الطبعة الخامسة، دار الفكر العربي سنة ١٩٧٧م القاهرة.

وذلك مثل تفسيراتهم لبعض الأسرار والشعائر المقدسة عندهم كتفسيرهم للعشاء الرباني واعتقادهم بتحول الخبز الذي يتناولونه إلى جسد المسيح والخمر إلى دم المسيح، وغيرها من الأمور التي لا يستطيع العقل فهمها!!

ولذلك وقف «برنارد» موقف العداء من «أبيلارد» الذي نادى بأنه لا أسرار في الدين وأنها يجب أن تكون قابلة للتفسير القائم على العقل.

وقد سبق أن أشرنا إلى قول «برنارد» أن من يحاول تفسير الأسرار المقدسة- عندهم- فإنه يرتكب إثمًا كبيرًا ومعصية وذنبًا عظيمًا، وقوله بأن العقل الذي يبدأ بتفسيرها سينتهي به الأمر إلى تدنيسها.

إن هذا الاستبداد وتلك الممارسات كانت سببًا في إثارة النزاع بين الدين والعقل وإنكار بعض المسيحيين لبعض العقائد والأسرار المسيحية التي لا تتوافق مع العقل.

وهذا سيكون له أثره في وجود اتجاهات فكرية أخرى سوف تقف من الدين موقف الإنكار والعداء.

* * *

ثالثًا: ثورة الإصلاح الديني البروتستانتي

تطورت العقلية الأوربية تطورًا دنيويًا، وغدا المجتمع الأوربي الذي كان خانعًا للكنيسة ينقسم إلى قسمين:

قسم شغل عن الكنيسة وابتعد عنها نحو حياة رحيبة فسيحة الآفاق متحررة من كل قيد، وسوف نتحدث عن هذا الاتجاه فيما بعد.

وقسم آخر عني بأحوال الكنيسة، ووقف على فساد الأسس التي تطورت إليها أنظمة الكنيسة ولذلك كان يرى أنه لا بد من إصلاحها[١].

وقد هب جماعة من المسيحيين للخروج على الكنيسة الكاثوليكية، والتنديد بعيوبها، والتشهير بمفاسدها واعتبرت هذه الحركة الإصلاحية بمثابة الثورة على السلطة البابوية وسلطة رجال الدين المسيحي بوجه عام.

وقبل أن نتحدث عن العوامل التي أدت إلى قيام حركة الإصلاح الديني المسيحي في أوربا «نود أن نقف على عدة أمور أساسية:»

الأول: أن أوربا كانت قد نهضت فيها حركات أظهرت سخطها وعدم رضاها عن الكنيسة وما تقوم به من أعمال[٢].

لقد نشطت حركات النقد بشكل متزايد في أواخر العصور الوسطى مما كان له أثره في تهيئة الجو العام لقيام حركة الإصلاح.

إن هذه الحركات النقدية كانت أفضل تمهيد لظهور هذه الحركة الإصلاحية فهي التي جرأت وشجعت القائمين على الإصلاح لإظهار مفاسد وعيوب البابوية والمناداة بإصلاحها، لقد كان نتيجة لهذا الاتجاه النقدي أن

---

(١) د/ عبد العزيز الشناوي: أوربا في مطلع العصور الحديثة ص٣٥٦، ٣٥٧، الطبعة الرابعة، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٢م.

(٢) وقد تحدثنا عن هذا الاتجاه فيما سبق تحت عنوان (نقد الكنيسة).

فقدت الكنيسة مكانتها التي كانت تبوأتها واهتز الأساس الروحي والأخلاقي الذي أقامت عليه نفوذها بل جبروتها في العصور الوسطى، وبات المسيحيون في دول غربي أوربا يتحدثون عن ضرورة إصلاح الكنيسة والقضاء على الانحرافات الخطيرة التي ظهرت بين رجالها[١].

الثاني: كانت قد سبقت هذه الحركة الإصلاحية حركة قوية من التحرر الفكري تلك التي كانت سببًا في إحداث بوادر النزاع بين الدين والعقل، وقد تمشت هذه الحركة مع حركة الإصلاح وبدأت في الانتشار والذيوع في ربوع أوربا.

وقد تحدثنا عن هذه الحركة في مهدها فيما سبق ونستكملها فيما بعد على اعتبار أنها أخذت صورًا جديدة.

الثالث: يعتبر المؤرخون الإصلاح البروتستانتي ثورة- كما يقول فشر- على كل من الثيوقراطية[٢] البابوية وامتيازات الإكليروس[٣].

أي أنه ثورة على الكنيسة وعلى مفاسدها ومساوئها.

عوامل قيام حركة الإصلاح:

أشار المؤرخون إلى عوامل كثيرة أدت إلى قيام حركة الإصلاح البروتستانتي. وسوف نكتفي فيما يلي بذكر بعضها:

١- تدهور حالة رجال الدين.

«لقد سلم المؤرخون أن البابوية خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر والجزء الأول من القرن السادس عشر وصلت إلى أدنى درك خلقيًا وروحيًا.

(١) نفسه ص ٣٦٢.

(٢) نظام من نظم الحكم ترجع السلطة فيه إلى رجال الدين (المعجم الفلسفي ص ٥٧).

(٣) أصول التاريخ الأوربي الحديث ص ٩٥.

كانت بابوية دنيوية... وكانت مركزًا لبلاط فاسد عاجز عن تقديم قيادة روحية، وإرشادات كنسية، وحقًا كان هذا البلاط يغوص منحدرًا إلى أدنى درك في القيم الأخلاقية»[١].

٢- فقدان البابوية الكثير من أسباب نفوذها وهيبتها منذ القرن الرابع عشر نتيجة لعدة امور:

أ- الأسر البابلي.

ب- الانشقاق الكبير.

ج- المواقف التي اتخذتها المجامع المسيحية من البابوية.

د- تطور العقلية الأوربية تطورًا دنيويًّا.

أ- أما عن الأسر البابلي: وهي المدة التي استقر فيها البابوات في أفنيون الفرنسية في المدة من (١٣٠٥- ١٣٧٧م)[٢]. وكان كل البابوات خلالها من الفرنسيين. وسميت بذلك على اعتبار أن البابوية كانت شبه أسيرة بحكم خضوعها للملكية الفرنسية[٣].

وملخص أمر هذا الأسر أن البابا، «**يونيفاس الثامن**» (١٢٩٤- ١٣٠٣م) أنكر حق الملوك في فرض ضريبة على الإكليروس ووضع بيانات تطالب بالسلطة المطلقة للبابوية على كل الناس. وفي جميع الشئون. وأعاد تعريف مبدأ

---

(١) جون لوريمر: تاريخ الكنيسة ج٤ ص ٣٥.

(٢) هناك من المؤرخين من يرى أن مدة الأسر تبدأ بسنة (١٣٠٩ حتى سنة ١٣٧٧م)، راجع معالم تاريخ الإنسانية ص ٩٤٧، تاريخ أوربا في العصور الوسطى القسم الثاني ص ٣٥٨.

(٣) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٥٤. وهذه الفترة من تاريخ البابوية يدعوها الإيطاليون فترة السبي البابلي لأن البابوية بقيت خلالها بعيدًا عن مقرها التقليدي في روما، وظلت أسيرة تحت ملك فرنسا وخاضعة لنفوذه سبعين عامًا، كما كان الشعب اليهودي مسبيًّا في أرض بابل لمدة سبعين عامًا في فترة سابقة من التاريخ (المسيحية في العصور الوسطي) ص ١٦٨.

«السيفين» أي القوتين في مرسوم بابوي يسمى «يونام سانكت» ويتضمن ما يلي:

«السيفان الروحي والمادي كلاهما في سلطان الكنيسة، لكن الثاني يجب أن يستخدم للكنيسة. الأول بواسطتها أي بواسطة الكاهن وموافقته، إذن أحد السيفين يكون تحت الآخر، والسلطة الدنيوية تخضع للروحية... وعلى هذا فإن أخطأت السلطة الأرضية تحاكمها القوة الروحية، لكن إذا أخطأت القوة الروحية يدينها الله وحده لا الإنسان... لأن هذه السلطة مع كونها سلمت لإنسان ويمارسها إنسان، لكنها بالأحرى سلطة إلهية أكثر من ذلك. نحن نصرح ونقرر ونعلن أنه على وجه الإجمال لا بد وأن يخضع للبابا كل مخلوق بشري يريد الخلاص»[1].

أغضب المرسوم البابوي (يونام سانكت) فيليب الرابع ملك فرنسا وأثاره لدرجة أنه دعا إلى عقد مجمع عام للكنيسة لمحاكمة البابا، ولكن هذا المجمع لم ينعقد قط، فأرسل الملك قوة مسلحة سجنت البابا «يونيفاس» في الوقت الذي أوشك أن يصدر فيه الأمر بحرمان فيليب، وقد ساند الفرنسيون ملكهم ضد البابا الأمر الذي سبب صدمة قاسية للبابوية.

وتابع فيليب اغتنام فرصته بعد موت «يونيفاس» بالضغط في اختيار خليفة البابا[2]، واختير أحد الكرادلة الفرنسيين لمنصب البابوية باسم كلمنت الخامس (١٣٠٥- ١٣١٤م)، وقد آثر هذا البابا أن يبقى حيث هو، فأرسل إلى الكرادلة يستدعيهم لمقابلته في «ليون» وفيها تمت المراسم الخاصة بتوليه المنصب الجديد، وكان المفروض أن تتم هذه المراسم في روما أو على الأقل يذهب بعد إجرائها إلى مقر كرسيه البابوي، ولكنه آثر البقاء في فرنسا في مدينة أفنيون على نهر الرون على الحدود الفرنسية واتخذها مقرًا جديدًا

---

(١) تاريخ الكنيسة ج٤ ص ٣٠.

(٢) نفسه ص ٣٠، ٣١.

للبابوية[١] وقد استطالت هذه الفترة اثنتين وسبعين سنة (١٣٠٥- ١٣٧٧م) وأطلق عليها اسم الأسر البابلي. وتعاقب على البابوية في هذا المقر ستة من البابوات[٢] حتى عاد أخيرًا البابا جريجورى الحادي عشر إلى روما سنة ١٣٧٧م وبذلك انتهت فترة الأسر البابلي[٣].

وقد فقدت البابوية الكثير من هيبتها في أعين المسيحيين نتيجة لهذا الأسر.

يقول جون لوريمر: «**شهدت هذه الحقبة دلائل الانحدار الخطير في هيبة البابوية، كان بابوات أفنيون مقتدرين وأقرب إلى رجال الأعمال يفتقرون تمامًا إلى الروحانية. فشغلوا أنفسهم بجمع الضرائب من كل الدول ليغتنوا ويبنوا قصورهم. ولأن هذه البابوية كانت تابعة وخاضعة لملوك فرنسا استنكرتها كل الدول الأخرى**»[٤].

ويقول فشر: «**غير أنه من العبث أن ينكر أحد أن البابوية انخفضت في أعين الناس نتيجة أسرها في أفنيون**»[٥] ولم تعمل البابوية شيئًا طوال القرن الرابع عشر لاسترداد هيبتها المعنوية[٦].

ب- **الانشقاق الديني الكبير**[٧]: ويطلق عليه أيضًا انشقاق الغرب واستمر من

---

(١) وقد أعلن البابا كلمنت الخامس براءة فيليب من الهجوم على «بونيفاس الثامن» وألغى مرسوم الحرمان، وعدل الأمر البابوي «يونام سانكت» بحيث يرضى الملك نفسه ص ٣١.

(٢) البابوات الذين تولوا الكرسي البابوي في أفنيون هم: كلمنت الخامس، ثم حنا الحادي والعشرين ويقال له الثاني والعشرين كذلك، ثم بندكت الثاني عشر، ثم كلمنت السادس، ثم إنوسنت السادس ثم إربان الخامس، ثم جريجوري الحادي عشر، هامش تاريخ أوربا في العصور الوسطى القسم الثاني ص ٣٥٨.

(٣) أوربا في مطلع العصور الحديثة هامش ص ٢٧.

(٤) تاريخ الكنيسة ج٤ ص ٣١.

(٥) تاريخ أوربا في العصور الوسطى القسم الثاني ص ٣٥٨.

(٦) معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث ص ٩١٤.

(٧) عن هذا الموضوع راجع: تاريخ أوربا العصور الوسطى (القسم الثاني) ص ٣٥٩. معالم تاريخ الإنسانية (المجلد الثالث) ص ٩١٤، ٩٤٧، ٩٤٨، تاريخ الكنيسة ج٤، ص٣٢، وقد لخص د/عبد العزيز الشناوي هذا الحدث تلخيصًا مفيدًا استفدنا منه استفادة كبيرة في تصوير هذا الانشقاق الكبير، أوربا في مطلع العصور الحديثة هامش ص ٣٥٥.

سنة ١٣٧٨ حتى ١٤١٧م وقد انبثق هذا الانشقاق عن الأسر البابلي، ذلك أن البابوات المقيمين في مدينة أفنيون في فرنسا كانوا يشعرون أن وضعهم هناك أمر غير طبيعي؛ لأن البابوية استمدت نشأتها وهيبتها في نظر العالم الغربي من كرسي القديس بطرس في روما، وأنهم لا يتمتعون بحريتهم كاملة لأنهم كانوا في منطقة محاطة بالنفوذ الفرنسي، وأصبح المجتمع الأوربي ينظر إليهم على أنهم صنائع ملوك فرنسا، كما أن إقامتهم في أفنيون قد حرمتهم من شطر كبير من الموارد المالية، وكان سكان روما قد تأثروا اقتصاديًّا واجتماعيًّا من نقل مقر البابوية من مدينتهم، ولذلك كانوا يسألون بابوات أفنيون إلحافًا أن يعودوا إلى مقرهم الطبيعي، واستجاب لهذه الرغبة البابا جريجوى الحادي عشر (١٣٧٠- ١٣٧٨م) فذهب إلى روما ومن المحتمل أنه قام بهذه الرحلة تحت ستار الرغبة في زيارة الأماكن المقدسة- عندهم- في روما، ثم توفي في السنة التالية من انتقاله إلى روما.

وأدرك سكان هذه المدينة أن الفرصة قد واتتهم، فطلبوا من الكرادلة انتخاب بابا جديد على الأقل إيطاليًا إن لم يكن من أبناء روما، واختير إيريان السادس لكرسي البابوية في روما (١٣٧٨- ١٣٨٩م). وثارت ثائرة الكرادلة الفرنسيين على هذا الإجراء، وأخذوا- بدافع الحرص على مصالحهم الشخصية- يلحون على البابا الجديد في الانتقال إلى أفنيون، ورفض البابا أن يذعن لهذا الإلحاح. وأمام هذا الرفض لم يسع الكرادلة الفرنسيين إلا أن يطعنوا بالبطلان في قرار انتخاب إيريان السادس، واختاروا كلمنت السابع (١٣٧٨- ١٣٩٤م) لكرسي البابوية على أن يقيم في أفنيون.

وعلى هذا النحو بدأ الانشقاق الديني الثنائي بوجود فريقين متنافرين متناكرين من البابوات تعاقب أحدهما في روما، وتعاقب الثاني في أفنيون. وانقسم العالم المسيحي الغربي إلى معسكرين كبيرين: أحدهما يناصر البابا إيريان السادس ويضم إنجلترا ومعظم ألمانيا، والمجر، وبولندا، وأمراء شمالي إيطاليا.

والمعسكر الآخر يؤيد البابا كلمنت السابع ويضم فرنسا، وأسبانيا، ونابولي، وصقلية. وهذا هو مطلع الانقسام أو الانشقاق الديني الكبير.

وقد فكر بعض الكرادلة في إيجاد حل للموقف الشائك الذي انحدرت إليه البابوية فعقدوا مجمعًا كنسيًّا في مدينة بيزا في إيطاليا سنة ١٤٠٩م، ضم عددًا كبيرًا من الكرادلة وقادة الفكر والسياسيين، وقرروا خلع كل من بابا روما وأفنيون، وهما وقتذاك بندكت الثالث عشر، وجريجوري الثاني عشر، وانتخاب بابا جديد يحل محلهما، واختاروا البابا إسكندر الخامس، ولكن سرعان ما وافاه الأجل، فاختير البابا حنا الثالث والعشرون، وقد أدت هذه المحاولة إلى تصعيد الموقف إذ رفض بابا روما، وبابا أفنيون التخلي عن منصبيهما. فأصبح في العالم المسيحي الأوربي ثلاث بابوات وأصبح الانقسام الديني ثلاثيًّا، واستمرت مشكلة الانشقاق الديني الكبير قائمًا إلى أن استطاع المجمع الكنسي المنعقد في مدينة كونستانس (١٤١٣- ١٤١٧م) حسمها وأعاد إلى البابوية وحدتها[١] وأصبح مارتن الخامس البابا الوحيد في أوربا على عالم مسيحيته موحدة رسميًّا ولكنها- كما يقول ولز- مضعضعة بادية الإعياء روحيًّا[٢].

لقد كان هذا الانشقاق سببًا كبيرًا في أن فقدت البابوية هيبتها في نظر الكثيرين خاصة وأن الناس وجدوا تكالب البابوات على المنصب البابوي وما ترتب على ذلك من انقسام ووجدوا ثلاثة بابوات في العالم الأوربي المسيحي:

أولهم: في مدينة أفنيون الفرنسية.

وثانيهم: في مدينة روما.

---

(١) أوربا في مطلع العصور الحديثة (هامش ص ٣٥٥).

(٢) معالم تاريخ الإنسانية (المجلد الثالث) ص ٩١٥.

وثالثهم: في مدينة بيزا في إيطاليا.

وأصبح كل فريق يعمد إلى تسفيه منافسيه ويطعن فيهما وفي صلاحيتهما لتولي كرسي البابوية، بل إن بعضهم لم يتورع عن إصدار قرار الحرمان ضد البابا الآخر[١] حتى لقد غدت المسيحية- كما يقول ولز- بأجمعها ملعونة أثناء ذلك الزمان لعنا صحيحًا كاملاً بهذا المعيار أو ذاك (١٣٧٨-١٤١٧م)[٢] ويكفي أن نعرف أنه في أثناء ذلك الانشقاق كان كل بابا يلعن الآخر ويضع الحرمان على كل أنصاره[٣].

ج- المواقف التي اتخذتها المجامع المسيحية من البابوية:

كما سبق أن أشرنا إلى أنه في فترة السبي البابلي، والانشقاق الكبير عقدت عدة مجامع مسيحية كان الهدف منها إما محاكمة البابا، أو خلعه، ووصف البابوات في تلك الفترة وبواسطة تلك المجامع بأوصاف أفقدت البابوية هيبتها ومكانتها ونفوذها بين الناس في العالم الأوربي. هذا إلى جانب أن:

«المناقشات التي دارت بين المسيحيين في هذه المجامع كشفت عن تكالب كبار رجال الدين على المنصب وتمسكهم بها وبعدهم عن الأخلاق الطيبة فتكشفت للعيان حقيقتهم»[٤].

وسوف نذكر فيما يلي بعض المجامع التي اتخذت مواقف حازمة ضد البابوية.

منها مجمع كونستانس: حيث أصدر قرارًا بعزل بابا «بيزا» من منصبه سنة ١٤١٥م، ولما رأى بابا روما اتجاه المجمع لإقالته آثر أن يستقيل بدلاً من أن

---

(١) أوربا في مطلع العصور الحديثة (هامش ص ٣٥٦).

(٢) معالم تاريخ الإنسانية ص ٩١٤.

(٣) نفسه ص ٩٤٨.

(٤) أوربا في مطلع العصور الحديثة (ص ٣٥٦).

يأتيه قرار الإقالة، أما بابا أفنيون واسمه بندكت الثالث عشر فقد رفض قرار المجمع بعزله وتحدى المجمع، واعتصم بقلعة حصينة حتى توفي سنة ١٤٢٢م[١].

ومنها مجمع بازل بسويسرا سنة ١٤٣١م: وقد ظهرت في مناقشات وقرارات هذا المجمع روح التحدي للبابوية، إذ أصدر قرارات كان من بينها تحريم دفع رسوم عند شغل الوظائف الكنسية، وحرمان البابا من حق تعيين الأساقفة وجعل هذا التعيين عن طريق الانتخابات.

ووقعت أزمة بين البابا وهذا المجمع. وأصدر البابا قرارًا يفض المجمع، ورفض الأعضاء الإذعان لهذا الأمر. واستمروا في عقد جلساتهم. وذهبوا في تحديهم للبابا إلى نهاية الشوط، فأصدروا أولاً قرارًا بألا ينفض مجمع كنسي بغير موافقة أعضائه، وإذا اختلف أعضاء المجمع على مسألة مطروحة أمامه فلا يجوز الالتجاء إلى تحكيم البابا، وأنكروا على البابا حقه في الحصول على ضريبة السنة الأولى التي كانت تعرف بالإتاوة الضخمة وهي تعادل حصيلة جميع الضرائب التي تجمع خلال السنة الأولى من كل وظيفة من الوظائف الدينية، أو الإقطاعية للبابا، ثم انتهى الأمر بالمجمع إلى أن أصدر قرارًا في سنة ١٤٣٠، بإقالة هذا البابا وهو يوجين الرابع، وانتخب فيلكس الخامس للكرسي البابوي[٢].

ووضح من هذا أن المجامع المسيحية التي عقدت في تلك الفترة وما شهدته من أحداث وقرارات- خاصة فيما يتعلق بالبابوية- كانت من بين العوامل التي أفقدت البابوية سمعتها وكرامتها وهيبتها واحترامها.

د- تطور العقلية الأوربية تطورا دنيويًا:

لقد تطور المجتمع الذي كان يرى أن الكنيسة هي الملجأ والملاذ، وأصبح

(١) نفسه هامش ص ٣٥٦.
(٢) نفسه هامش ص ٣٥٧.

يعارضها ويوجه إليها أوجه النقد المختلفة خاصة بعد التطور الملحوظ وتقدم المعارف والعلوم ابتداءً من القرن الثاني عشر الميلادي. وقد ترتب على ذلك أن وجدنا بعض المفكرين الأوربيين ينفصلون عن الكنيسة انفصالاً نهائيًّا والبعض الآخر يرى أنه لا بد من إصلاح الكنيسة «ومضت السنون ومركز الكنيسة يهتز في أعين المسيحيين الذين شعروا بضرورة إدخال تغييرات جذرية في نظم الكنيسة»[١].

إن الحركات العلمية التي ظهرت في أوربا آنذاك كانت من العوامل التي ساعدت الحركة البروتستانتية على قيامها، ونجاحها أيضًا «فقد أضعفت عناصر التحصيل العلمي الجديد الميل التقليدي إلى تقديس الكثير من العقائد والتقاليد والعادات التي كانت سند الكنيسة الرومانية منذ زمن بعيد»[٢].

وبدأت الكنيسة تتلقى صدمات كثيرة، وانتقادات موجعة، وهجومًا عقليًّا على مراسمها وعقائدها ورجالها.

٣- **أما عن العامل الثالث من عوامل الإصلاح:** فيتمثل في تلك الممارسات أو الاعتقادات الخاصة ببعض الطقوس والشعائر المسيحية ونقصد بهذا:

أ- مسألة الاستحالة.

ب- مسألة الغفران.

وكان الغرض من فرض مثل هذه الأمور هو التأكيد على أهمية رجال الدين حيث لا يستطيع أن ينالها أحد من المسيحيين إلا بواسطتهم، فهم الذين يضفون صفة القداسة- حسب اعتقادهم- على هذه الشعائر.

أ- مسالة الاستحالة:

الأساس فيها أن المسيحيين يأكلون يوم الفصح خبزًا ويشربون خمرًا

---

(١) نفسه ص ٣٦٠.

(٢) فشر: أصول التاريخ الأوربي الحديث ص ٩٦.

ويسمون ذلك العشاء الرباني، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح، وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح، فمن أكلها وقد استحالا هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه[١].

وتعتقد الكنيسة الكاثوليكية أن المسيح موجود في هذا بجسده ونفسه ولاهوته معا، وأنه عندما يقول الكاهن (هذا هو جسدي)، يتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الحقيقيين[٢].

وفي هذا يقول بولس إلياس اليسوعي: **«إنه- أي العشاء الرباني أو الأفخارسيتا -كما يحب الكاثوليك أن يسموه- سر حضور الرب يسوع المسيح حضورًا حقيقيًا بجسده ودمه ونفسه ولاهوته تحت أعراض الخبز والخمر»**[٣] إن التحول في نظرهم تحول حقيقي.

وقد استدل المسيحيون على ذلك بما جاء في إنجيل متى: **«وفيما يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ، وقال خذوا كل هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلًا اشربوا منها كلكم»**[٤].

تمسكت الكنيسة بحرفية هذه العبارة- التي نسبوها إلى المسيح واعتقدت بتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه تحولاً حقيقيًا بقدرة القسيس كما يعتقدون. وإذا كان شرب الخمر يعرض دم المسيح للانسكاب على الأرض!!

فقد نشأت في القرن الثاني عشر عادة الاكتفاء بتناول العشاء الرباني بالخبز وحده، وأكد لهم رجال الدين- عندهم- أن دم المسيح ملازم لجسمه في الخبز وأن جسمه ملازم لدمه في الخمر[٥].

(١) محاضرات في النصرانية ص ٢٠٤.
(٢) تاريخ المسيحية (المسيحية في العصور الوسطى) ص ١٠٦.
(٣) بولس إلياس اليسوعي: يسوع المسيح ص ٣٠٦، ٣٠٧.
(٤) متى ٢٦: ٢٦، ٢٧.
(٥) قصة الحضارة مج٤ ج٥ ص ١٧، ١٨.

ونشأت هذه العقيدة- عقيدة حضور المسيح في أثناء العشاء الرباني كما يعتقدون- نشأة تعد بطيئة ومتأخرة كما يقول ول ديورانت وكانت الصياغة الرسمية الأولى لهذه العقيدة هي التي أذاعها مجلس نيقية في عام ٧٨٧م... وعندما قام (برنجار) رئيس شمامسة تور حوالي عام ١٠٥٤م وجهر بارتيابه في تحول الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه كان جزاؤه الحرمان من الدين، وكتب (لافرانك) رئيس دير بلك ردا عليه سنة ١٠٦٣م يقول فيه: «إنا **لنعتقد أن المادة الأرضية... تستحيل بتأثير القوة السماوية التي لا يستطيع أحد وصفها... أو إدراك كنهها إلى جوهر جسد المسيح!!»**.

وأعلن مجلس لاتران في عام ١٢١٥م أن هذه العقيدة من المبادئ الأساسية في الدين المسيحي.

وأضاف مجلس ترنت إلى هذا القول في عام ١٢٦٠م أن كل جزيء من الخبز المقدس- في نظرهم- مهما كسر يحتوي جسم عيسى المسيح كله، ودمه وروحه[(١)].

وهذا أمر غريب في العقل، لا يستطيع أن يستسيغه أحد بيسر وسهولة، بل لا يستطيع أن يستسيغه قط، إذ كيف يتحول الخبز لحمًا؟ وكيف يصير لحم شخص معين معروف؟ ذلك غريب، بل مستحيل التصور والقبول في العقل. ولكن الكنيسة فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته، وإلا عرضوا للطرد والحرمان[(٢)].

ويمكن أن يقال لهم في مجال مناقشة هذا الأمر: هل المسيح الإله هو الذي حل في الخبز والخمر أم المسيح الإنسان؟

إذا كان المسيح الإله فيلزمكم على هذا القول أن يشار إلى الخبز والخمر على أنهما قديمان حادثان!! وهو محال. ويلزمكم أيضًا على هذا القول إثبات

---

(١) نفسه ص ١٨.

(٢) محاضرات في النصرانية ص ٢٠٤، ٢٠٥.

القدم للخبز والخمر وعلى هذا فتكون الأقانيم خمسة بدلاً من ثلاثة.

ويقال لهم أيضًا: لقد أكلتم الإله القديم الذي حل في الخبز، وشربتم دمه الذي حل في الخمر، وهو ما لا يقول به عاقل.

أما إذا قالوا: إن المسيح الإنسان هو الذي حل في الخبز والخمر فهو باطل أيضًا إذ لا يمكن أن يحل جسد المسيح ودمه في الخبز والخمر في أماكن متعددة في وقت واحد[١].

وقد ناقش الشيخ رحمت الله الهندي هذه العقيدة وردها بردود قوية نذكر بعضها فيما يلي:

* إن القول بتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه قول باطل ذلك أنه إذا استحال الخبز والخمر مسيحًا كاملاً حيًّا بلاهوته وناسوته الذي أخذه من مريم عليها السلام فلا بد وأن يشاهد فيه عوارض الجسم الإنساني، ويوجد فيه الجلد والعظام والدم وغيرها من الأعضاء، لكنها لا توجد فيه، بل جميع عوارض الخبز باقية كما كانت، فإذا نظره أحد أو لامسه أو ذاقه لا يحس شيئًا غير الخبز، وإذا حفظه يطرأ عليه الفساد الذي يطرأ على الخبز لا الفساد الذي يطرأ على الجسم الإنساني، فلو ثبتت الاستحالة تكون استحالة المسيح خبزًا لا استحالة الخبز مسيحًا، فلو قالوا: إن المسيح استحال خبزًا لكان أقل بعدًا من هذا، وإن كان هو أيضًا باطلاً ومصادمًا للبداهة.

* إن حضور المسيح بلاهوته في أمكنة متعددة في آن واحد وإن كان ممكنًا في زعمهم لكنه باعتبار ناسوته غير ممكن؛ لأنه بهذا الاعتبار كان مثلنا، حتى إنه كان يجوع ويأكل ويشرب وينام ويخاف من اليهود ويفر وهلم جرا، فكيف يمكن تعدده بهذا الاعتبار بالجسم الواحد في أمكنة غير محصورة في آن واحد حقيقة؟

---

(١) راجع للباحث رسالة الدكتوراه (تأثر المسيحية بالأديان الوضعية) الباب الرابع، الفصل الرابع.

والعجب أنه ما وجد قبل عروجه إلى السماء، فكيف يوجد بعد قرون بعد اختراع هذا الاعتقاد الفاسد بالاعتبار المذكور في أمكنة غير محصورة في آن واحد؟

* إذا فرضنا أن ملايين من الكهنة في العالم قدسوا في آن واحد واستحالت تقدمة كل إلى المسيح الذي تولد من العذراء فلا يخلو إما أن يكون كل من هؤلاء المسحاء الحادثين عين الآخر أو غيره. والثاني: باطل على زعمهم، والأول: باطل في نفس الأمر لأن مادة كل غير مادة الآخر.

* إذا استحال الخبز مسيحًا كاملاً تحت يد الكاهن فكسر هذا الكاهن هذا الخبز كسرات كثيرة وأجزاء صغيرة. فلا يخلو إما أن يتقطع المسيح قطعة قطعة على عدد الكسرات والأجزاء، أو تستحيل كل كسرة وجزء مسيحًا كاملاً أيضًا، فعلى الأول لا يكون المتناوِل متناوِل مسيح كامل، وعلى الثاني: من أين جاء هؤلاء المسحاء؟ لأن ما حصل بالتقدمة إلا المسيح الواحد[1].

ورغم عدم معقولية الاستحالة إلا أن الكنيسة فرضتها وأقرتها، وحكمت على كل من يخالفها في هذا باللعن والطرد والحرمان.

وما نود أن نؤكد عليه هنا أن هذه العقيدة لم يقل بها المسيح ولا أتباعه الحقيقيون، وإنما جاءت بها الكنيسة من العقائد الوثنية وأقرتها بالمجامع المسيحية.

ولذلك يقول ول ديورانت: «وبهذه الطريقة تعظم الحضارة الأوربية والأمريكية اليوم شعيرة من أقدم الشعائر في الأديان الوثنية- وهي أكل الإله»[2].

---

(١) لمزيد من الردود والمناقشات لهذه العقيدة راجع الشيخ رحمت الله الهندي: إظهار الحق ج٣ ص ٧٠٥، ٧٢٤ تحقيق د/محمد أحمد ملكاوي، دار الوطن للنشر، دار أولي النهى سنة ١٤١٢هـ الرياض.

(٢) قصة الحضارة مج ٤ ج٥ ص ١٨.

ويقول: «وكان الاشتراك الجماعي في تناول الطعام والشرب المقدسين من المظاهر الكثيرة الحدوث في أديان البحر المتوسط، وكثيرًا ما كان أهل هذه الأديان يعتقدون أن هذا الطعام ستحل فيه بهذا التقديس قوى الإله ثم تنتقل بطريقة سحرية إلى المشتركين في تناوله!»[١].

ب- مسألة الغفران (وصكوك الغفران):

إن تعاليم الكنيسة تقضي بأن يقوم كل واحد منهم بالاعتراف بذنوبه أمام الكاهن ويقوم بمراسم الكفارات[٢].

واعتقدوا بأن المسيح منح الرسل- وهم التلاميذ كما يعتقد المسيحيون- قدرة غفران الخطايا.

وتقول الكنيسة إن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين ومن بطرس إلى البابوات، ومن ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين في القرن الثامن[٣].

ثم قرر مجلس لاتران الرابع ١٢١٥م أن يتكرر الاعتراف والعشاء الرباني كل عام وجعلهما من الواجبات الخطيرة، إذا أهملها إنسان حرم من جميع خدمات الكنيسة[٤].

وكانت تعاليم الكنيسة الكاثوليكية تعلن أنه بالاعتراف وقيام المعترف بما يوصيه به الكاهن من أعمال كفارية وإعلان الحل أو غفران الخطايا يحصل المعترف على رفع جرم الخطايا عنه... لكن يبقى بعد ذلك آلام المطهر... وعلمت الكنيسة بأن لها السلطان لتقصير فترة بقاء نفس الإنسان في

---

(١) نفسه مجلد ٣ ج٣ ص ١٥١.

(٢) تاريخ المسيحية (المسيحية في العصور الوسطى) ص ٩٧.

(٣) قصة الحضارة المجلد الرابع الجزء الخامس ص ١٤.

(٤) نفسه ص ١٥.

المطهر[١] إذا قام ببعض الالتزامات التي تفرضها عليه في أثناء فترة حياته على الأرض وكانت الكنيسة تمنح هؤلاء غفرانات تخفف عنهم- كما يعتقدون- عقوبة المطهر وآلامه، وفي أواخر العصور الوسطى كانت هذه الغفرانات أو صكوك الغفران تباع لقاء قدر من المال، بعد ذلك أعلنت الكنيسة أنه يمكن للأحياء أن يشتروا صكوك الغفران لأعزائهم الراحلين[٢].

وقد مُنحت صكوك الغفران منذ القرن التاسع، وكان أول صك بالغفران الكلي هو الذي عرضه إربان الثاني في عام ١٠٩٥م على من يشتركون في الحروب الصليبية الأولى.

وتوسعت الكنيسة في عمليات توزيع صكوك الغفران، ووجدت البابوية في الصكوك موردًا ماليًا غزيرًا سهل المنال، وأخذ البابوات يرسلون مندوبين عنهم إلى مختلف الأقاليم في أوربا الغربية لبيع صكوك الغفران، وأقبل الأفراد على شراء هذه الصكوك كل على حسب مقدرته المالية، بل وشرائها من أجل أمواتهم نيابة عنهم وذلك مغفرة لذنوبهم[٣]- كما يعتقدون-.

وكان بيع صكوك الغفران، يتم بناءً على مرسوم بابوي وكان هذا يعني عمليًا التأكيد على نصيب البابا في الدخل، علاوة على ذلك فقد ارتبطت

---

(١) «ووجدت الكنيسة - كما يقول جون لوريمر- طريقة أخرى ترضي «دينونة الله» على الشخص المعترف وذلك بابتياع «صك الغفران» من «خزينة الاستحقاقات» في السماء ولقد عللوا ذلك بأن الدم الذي سفكه المسيح - كما يعتقدون- كان كافيًا للخلاص بكميات أوفر من حاجات الجنس البشري وأن قديسين كثيرين عملوا الصالحات بما هو أكثر من اللازم لخلاص ذواتهم، هكذا بقيت هذه الخزينة من الاستحقاقات التي أمكن السحب منها بواسطة صك الغفران للخاطئ العادي وفي وقت لاحق امتد مبدأ صكوك الغفران ليشمل المسيحيين الذين احتجزوا في المطهر، وكان في استطاعة أقربائهم أن يشتروا صكوك غفران ليحصلوا لهم على الإفراج» ا هـ. تاريخ الكنيسة ج٤ ص ٣٨، راجع أيضًا د/ حنا جرجس الخضري: المصلح مارتن لوثر ص ٦٠، ٦١، إنه لمنطق عجيب وغريب وغير معقول!! إنه منطق أصحاب المصالح الدنيوية، والدوافع البشرية لامتلاك الدنيا وجمع الأموال بأي ثمن حتى ولو كان الثمن المتاجرة بالدين.

(٢) المسيحية في العصور الوسطى ص ٩٨، ٩٩.

(٣) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٦٨.

الممارسة بشراء مناصب الأساقفة ووظائف كنسية أخرى، وكان البابا يمنح الإذن ببيع صكوك الغفران في منطقة معينة حتى يستطيع الموظف المستفيد أن يدفع للبابا بعد ذلك ثمن منصبه الجديد[١].

ويلوح أن الرغبة في الحصول على الأموال من بيع صكوك الغفران قد تجاوزت كل حد معقول وغير معقول، فأصبحت هذه الصكوك تباع بالجملة ومقدمًا لغفران جميع الخطايا سواء التي ارتكبها الإنسان في ماضيه أو التي سوف يرتكبها في مستقبل أيامه، مما يعد تحريضًا سافرًا على الانغماس في الخطايا والآثام طالما أن مرتكبها سيكون بمنجاة من عذاب الآخرة، وزاد في مهزلة بيع صكوك الغفران أن البابوات كانوا يعهدون إلى بعض المصارف المالية في ألمانيا ببيع صكوك الغفران إلى عملاء البنك، فانتقلت المسألة من عملية دينية إلى عملية مصرفية لحمتها وسداها حصول الكنيسة على أموال ضخمة تحت ستار ديني هو صكوك الغفران التي بدت للكثيرين وكأنها تذاكر تبيح لحاملها دخول الجنة[٢] دون أي عناء أو مشقة.

وفيما يلي نص صك الغفران الذي كان يباع بيع السلعة: «ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات، والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها، وأيضًا من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ومن كل علة، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا، والكرسي الرسولي، وأمحو جميع أقذار المذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلزم بمكابدتها في المطهر، وأردك حديثًا إلى الشركة في أسرار الكنيسة، وأقرنك في شركة القديسين، وأردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين

---

(١) تاريخ الكنيسة ج٤ ص ٣٩.

(٢) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٦٩.

كانا لك عند معموديتك، حتى إنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة، حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن والروح القدس»[١].

ويعلق الشيخ أبو زهرة على هذا الصك بقوله: «**هذه صورة من صور صك الغفران تذكر أنها تمحو الآثام وتغفر ذنوب العاصي ما تقدم منها وما تأخر، تغسله من ذنوبه الماضية حتى يصير طاهرًا، ثم لا يصير قابلًا لأن تؤثر فيه الذنوب مهما يرتكب من خطايا، ومهما ينغمس في المعاصي. كأن الصك جواز المرور إلى النعيم المقيم، لا يعوق حامله عائق، ولا يرده عن الوصول خازن أو حارس**»[٢].

إن هذا الأمر يصور التدهور التي وصلت إليها البابوية، ويبين مدى الفساد والابتزاز والطمع البابوي لامتلاك الأموال وزيادة الثروات حتى ولو كانت على حساب الدين.

ولذلك اعتبر المؤرخون أن هذا العامل كان سببًا مباشرًا لقيام حركة الإصلاح البروتستانتي في أوربا.

هذه هي بعض العوامل التي أدت إلى قيام هذه الحركة في أوربا.

تجمعت هذه العوامل مع عوامل أخرى مثل: نمو المعارف والعلوم خارج الكنيسة، وإدراك بعض رجال الكنيسة بالحاجة إلى الإصلاح، والتحركات التي ظهرت في بعض بلدان أوربا من أجل الإصلاح، إضافة إلى المتغيرات السياسية، والاقتصادية وغيرها[٣]، تجاوبت هذه العوامل مع سابقاتها، وكان نتيجة لهذا أن قامت ثورة الإصلاح البروتستانتي ووجدت أرضًا خصبة لقبولها

(١) قصة الحضارة مج٦ ج٣ ص ٥، محاضرات في النصرانية ص ٢٠٦، راجع أيضًا د/أحمد شلبي: المسيحية ص ٢٥٤، الطبعة السادسة، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٨م.

(٢) محاضرات في النصرانية ص ٢٠٧.

(٣) راجع في هذا جون لوريمر: تاريخ الكنيسة ج٤ ص٢٥ وما بعدها.

بين الأوربيين في ظل المتغيرات الثقافية المختلفة.

أبرز قادة الإصلاح البروتستانتي:

منذ القرن الرابع عشر والأصوات تعلو لإصلاح الكنيسة، فقد ظهر منذ ذلك الوقت عدد من المفكرين المسيحيين الذين نادوا بالإصلاح، منهم علي سبيل المثال [حنا ويكليف ١٣٢٨- ١٣٨٤] الإنجليزي(١) و[حنا هَس ١٣٧٣- ١٤١٥] التشيكي من بوهيميا(٢).

تحديا البابوية- كما يقول جون لوريمر- في أمور تتعلق باللاهوت والسلطة(٣).

حيث هاجم (ويكليف) البابوية، ونقد قولهم في عقيدة الاستحالة وأنكر القول بتحول الخبز والخمر في العشاء الرباني، وأنكر أيضًا ما يدعيه رجال الدين لأنفسهم من قوة روحانية خاصة، ودعا إلى عودة الكنيسة إلى ما جاء في كتابهم المقدس(٤).

أما (هَس) فقد تأثر بآراء (ويكليف) وأضاف إليها، ولذلك أدانته الكنيسة وحكمت عليه بالحرمان في مجمع كونستانس ١٤١٤م وحكم عليه بالإحراق وتم التنفيذ سنة ١٤١٥م، كما أدان المجمع (ويكليف) وأمر أن يحرق جسده الذي سبق دفنه من مدة طويلة(٥).

---

(١) راجع فيشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى (القسم الثاني) ص ٣٦٢ وما بعدها، قصة الحضارة مج٦ ج١ ص ٦٣، وما بعدها، أوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٥٧ وما بعدها.

(٢) راجع تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص٣٧٠، تاريخ الكنيسة ج٤ ص٥٥، أوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٥٨، قصة الحضارة مج٦ ج٢ ص ٤.

(٣) تاريخ الكنيسة ج٤ ص٥١.

(٤) تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص١٦٣، بالإضافة إلى المراجع في الهامشين السابقين.

(٥) تاريخ الكنيسة ج٤ ص٥٧، ٥٨، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص٣٧١، المسيحية في العصور الوسطى ص١٧٨.

ثم ظهر بعد ذلك (جون كوليت ١٤٦٩- ١٥١٩م) و(توماس مور١٤٧٨- ١٥٣٥) الإنجليزيان، (ديسيد يروس إيرازموس الألماني ١٤٦٩- ١٥٣٦م) وكانت لهم إسهامات في الإعداد لحركة الإصلاح البروتستانتي[١].

أما قادة الإصلاح البروتستانتي الذين كان لهم دور كبير في ظهور هذه الحركة وانتشارها فهم:

مارتن لوثر، زوينجلي، كالفن. وسوف نتحدث عنهم بإيجاز فيما يلي:

أ- مارتن لوثر (١٤٨٣- ١٥٤٦م):

وصف بأنه الفلاح السكسوني الذي تدين له حركة الإصلاح الألماني بقيامها وصفاتها[٢].

ولد مارتن لوثر في العاشر من نوفمبر سنة ١٤٨٣م في آيزليبن وهي بلدة صغيرة في مقاطعة سكسونيا بألمانيا[٣].

التحق بجامعة إيرفورت ودرس فيها القانون، وحصل منها على درجته الجامعية سنة ١٥٠٤، ثم حول مسار حياته ودخل الدير الأوغسطيني في إيرفورت ليصبح راهبًا، وقد طبق الرهبنة بكل دقة، واحتفل بدخوله في سلك الكهنة، ثم عين مدرسًا للفلسفة في مدرسة ويتنبرج سنة ١٥٠٨م واستمر في دراسته اللاهوتية التي أهلته لتدريس «الكتاب المقدس»[٤].

وفي سنة ١٥١٠م اختير ليكون عضوًا في وفد مرسل إلى روما، وصدم لما رآه هناك وهاله انهيار المعايير الأخلاقية لدى رجال الدين ومن بينهم البابوات،

(١) راجع تاريخ الكنيسة ج٤ ص٧٠-٨٣.
(٢) أصول التاريخ الأوربي الحديث ص٩٨.
(٣) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص٣٧٠.
(٤) راجع هذا بالتفصيل في: تاريخ الكنيسة ص١٠٠ وما بعدها، د/حنا جرجس الخضري: المصلح مارتن لوثر حياته وتعاليمه ص٢٥ وما بعدها، قصة الحضارة مج٦ ج٣ ص٩ وما بعدها.

وانغماسهم في حياة البذخ والتبذل والملذات[١].

وفي سنة ١٥١٢م منح درجة الدكتوراة في اللاهوت، وفرغ وقته للتدريس والوعظ، وقد استطاع أن يجذب الانتباه خاصة وأنه استطاع أن يكون لنفسه بعض الآراء التي يخالف بها الكنيسة...

ثم سنحت له الفرصة لإظهار هذه الآراء وإعلانها بشكل حاسم وذلك حينما جاء «حنا تتزل» إلى ألمانيا لبيع صكوك الغفران.

«وكانت ممارسة بيع صكوك الغفران قد انتشرت في كل الكنائس الأوربية كوسيلة لجمع المال، وكانت الحملة الخاصة لجمع صكوك الغفران بالقرب من (ويتنبرج) هي التي استفزت مارتن لوثر ليتخذ الخطوة الدرامية الأولى- على حد تعبير جون لوريمر- تجاه الإصلاح»[٢]، خاصة وأن (تتزل) المكلف ببيع صكوك الغفران قد انزلق في عدة مآخذ إذ أمسك بالصكوك في يده ولوح بها في الهواء وقال مخاطبًا الفلاحين السذج الذين التفوا حوله إنهم إذا ما أسهموا عن طواعية واشتروا صكوك الغفران فإن كل تلال مدينة (أنابورج)- وهي مدينة ألمانية في مقاطعة سكسونيا- ستتحول إلى كتلة هائلة من فضة صافية وأنه ما أن يسمع رنين العملة في الصندوق حتى تكون روح من دفعت الأموال من أجله في طريقها إلى الجنة[٣]- على حد قوله- وبلغ الأمر مداه حين قال مخاطبًا الجماهير إن الرجل إذا ارتكب الخطيئة مع العذراء[٤] المباركة نفسها فإن هذه الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل[٥].

---

(١) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص٣٧٢.

(٢) تاريخ الكنيسة ج٤ ص١١٣.

(٣) أصول التاريخ الأوربي ص١٠.

(٤) السيدة مريم عليها السلام لها مكانتها في الإسلام ويكفي للدلالة على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣] .

(٥) راجع أوربا في مطلع العصور الحديثة ص٣٧٢، ٣٧٤، قصة الحضارة مج٦ ج٣ ص٦.

أثارت هذه التصريحات مكامن السخط في نفس مارتن لوثر فتحرك لمهاجمة صكوك الغفران، وانتهز فرصة اجتماع الأهلين على عادتهم في كنيسة ويتنبرج في ٣١ أكتوبر سنة ١٥١٧م وعلق على باب الكنيسة احتجاجًا ضافيًا يتضمن خمسة وتسعين بندًا ضد صكوك الغفران، ودعا لوثر لمناقشة كل من يريد من العلماء، وذاع أمر هذه الوثيقة وطبعت ووزعت في طول البلاد وعرضها وهكذا بدأ الإصلاح البروتستانتي[١].

وفي هذا البيان- أو الاحتجاج- لم يحمل لوثر على العمليات البشعة التي كان يتم بها بيع صكوك الغفران للجماهير فحسب، بل هاجم الغفران نفسه كعملية دينية تمارسها الكنيسة الكاثوليكية في صورة تتنافى- كما يرى لوثر- مع المسيحية.

وهاجم سلطة البابا في غفران الذنوب، ودعا إلى العودة إلى الكتاب المقدس- عندهم- مؤكدًا على أنه هو المصدر الوحيد الذي يجب الاعتماد عليه في تفسير جميع المسائل الدينية[٢].

وقد بذلت محاولات لإلقاء القبض على لوثر وترحيله إلى روما، لكنها أخفقت بفضل مساندة (فريدريك) ناخب سكسونيا الذي لم يقبل إطلاقًا أن يحاكم أحد من رعاياه في روما[٣]، ورأى البابا أن يسلك مع (لوثر) طريق الإقناع فأرسل إليه أحد الكرادلة لكنه لم يفلح معه[٤]، ومضت سنة ١٥١٨م في محاولات ومفاوضات ومناظرات للتوفيق بين (لوثر) وكنيسة روما لكنها لم تسفر عن نجاح، وأطلق على هذه الحركة اسم (مشادة الرهبان) وفي السنة التالية ظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن الانفصال عن كنيسة روما أصبح أمرًا

(١) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص٣٧٤، أصول التاريخ الأوربي الحديث ص١٠٠.
(٢) نفسه ص٣٧٥، تاريخ الكنيسة ج٤ ص١١٦، ١١٧.
(٣) راجع تاريخ الكنيسة ج٤ ص١١٩.
(٤) نفسه نفس الصفحة.

لا مفر منه[١]، واستمرت المواجهة بين لوثر وخصومه، حيث سبق الترتيب لإجراء حوار أو مناظرة- مع (حنا إيك) وهو زميل أكاديمي سابق للوثر، وأحد كبار أنصار الكنيسة الكاثوليكية- في ليبزج خلال شهر يوليو سنة ١٥١٩م[٢].

وفي هذه المناظرة هاجم (لوثر) سلطة البابا ووصل إلى مرحلة الشك- كما يقول جون لوريمر- في أن عصمة البابا يمكن تبريرها تاريخيًا، فبين أن القرون الأحد عشر الأولى من تاريخ الكنيسة، ومجمع نيقية، والأسفار المقدسة- عندهم- كانت تعارض مبدأ العصمة وتنكره.

أنكر (لوثر) إذن عصمة البابا، كما أنكر عصمة المجامع الكنسية[٣].

وبدأ في اتخاذ عدة خطوات عملية لتنفيذ الإصلاح فوجه في سنة ١٥١٩م الدعوة إلى حكام الولايات الألمانية من الأمراء ومن إليهم كي يتزعموا هذه الحركة الإصلاحية[٤]، ووضع في سنة ١٥٢٠م ثلاث رسائل تسمى (الرسائل الثلاث العظمى في حركة الإصلاح الديني) كانت الرسالة الأولى عبارة عن نداء وجهه باللغة الألمانية إلى قادة الفكر من غير رجال الدين في ألمانيا حثهم فيه على الشروع في إصلاح الكنيسة بأنفسهم دون الاعتماد على رجال الكنيسة وكان عنوان هذه الرسالة: (إلى هيئة النبلاء المسيحيين من الأمة الألمانية بصدد إصلاح العالم المسيحي)[٥].

وكانت الرسالة الثانية وقد وضعها باللغة اللاتينية عنوانها (حرية الرجل المسيحي) ووجهها إلى البابا ليو العاشر على أنها نداء للسلام[٦].

أما الرسالة الثالثة فقد وضعها باللغة اللاتينية أيضًا ووجهها إلى رجال الفقه الديني[٧]- المسيحي- أظهر فيها ضعف البابوية، وتدهور أخلاق رجال

(١) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص٣٧٦.
(٢) راجع تاريخ الكنيسة ج٤ ص١٢١.
(٣) نفسه ص ١٢١.
(٤) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص٣٧٧.
(٥) راجع تفاصيل هذه الرسالة وما تحتويه في: المصلح مارتن لوثر ص١٠١.
(٦) نفسه ص١٠٥.
(٧) نفسه ص١٠٣.

الدين، ووضع عنوانًا لها (مقدمة عن الأسر البابلي الكنسي)[١].

ولذلك لم تجد الإدارة البابوية حلا لهذا سوى إصدار قرار الحرمان «للوثر» سنة ١٥٢٠م وعهد إلى البابا شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية وقتذاك تنفيذ قرار الحرمان تأسيسًا على أن لوثر يقيم في إقليم سكسونيا الداخل في أراضي هذه الدولة، ورأى الإمبراطور أن يعرض الموضوع على المجلس الإمبراطوري، ودعى لوثر للمثول أمام المجلس ووجه إليه عدة أسئلة بشأن الكتب التي ألفها وهل يرغب في التراجع عما فيها؟ فأجاب بأنه لا يستطيع الرجوع في أي موضوع تعرض له في كتاباته، ولذلك أصدر الإمبراطور بيانا أعلن فيه سخطه على الحركة اللوثرية، ثم أصدر المجلس قرارًا في ٢٦ مايو سنة ١٥٢١م بطرد لوثر خارج القانون وإهدار دمه باعتباره يعرض أمن الدولة الداخلي والخارجي لأخطار فادحة، كما تضمن قرار حظر تداول كتب «لوثر» ومنع قراءة جميع كتاباته[٢].

ورغم هذا فقد ظلت الحركة اللوثرية، وأخذت طريقها إلى الذيوع والانتشار وأطلق على أنصار هذه الحركة لفظة «بروتستانت»[٣]، وهو الاسم

(١) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص٣٧٩، تاريخ الكنيسة ج٤ ص١٢٣- ١٢٧، أصول التاريخ الأوربي الحديث ص١٠١.

(٢) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص٣٨٠- ٣٨٥.

(٣) أما عن سبب إطلاق لفظة «بروتستانت» على أنصار لوثر فهو كما يلي: انتشرت حركة لوثر في المقاطعات الألمانية، وتفاقم الموقف في ألمانيا بالنسبة للكاثوليك، ورأى الإمبراطور شارل الخامس أن يخطو خطوة لحل المشكلة الدينية التي باتت تهدد البلاد الألمانية بانقسام ديني مذهبي، فوجه الدعوة لعقد المجلس الإمبراطوري الثاني في مدينة سبير في بافاريا – مارس ١٥٢٩. ولم تعجب قرارات هذا المجمع أنصار الحركة اللوثرية، حيث قرر السماح بإقامة الطقوس الكاثوليكية في المقاطعات اللوثرية، ولكنه لم يمنح هذه المقاطعات الحق المقابل: وهو أن يكون لها في البلاد الكاثوليكية الحق في إقامة القداس طبقًا للمذهب اللوثري.

ولذلك قرر أنصار الحركة اللوثرية تحدى الإمبراطور، فاحتجوا على قرار مجمع سبير الثاني وقالوا: «إننا نحتج ونعلن أننا لا نستطيع أن نذعن لهذا القرار ونعتبره لاغيًا وغير ملزم لنا». ووقع على هذا الاحتجاج خمسة أمراء، وحكام أربع عشرة مدينة. ومن الاحتجاج اشتق أنصار الحركة اللوثرية الاسم الذي اشتهروا به وهو: البروتستانت أي المحتجون وهو الاسم الذي التصق بهم منذ مجمع سبير الثاني في سنة ١٥٢٩ حتى الوقت الحاضر. (المرجع السابق ص٤٠٦- ٤٠٨).

الذي اشتهرت به حركة الإصلاح الديني.

أما عن أهم مبادئ لوثر فهي كما يلي:

١- إخضاع رجال الدين للسلطة المدنية.

٢- ليس للبابا الحق في احتكار تفسير الكتاب المقدس.

٣- إباحة الزواج للقسس، وقد تزوج لوثر سنة ١٥٢٥م بإحدى الراهبات وتدعى كاترين بورا.

٤- عدم إنشاء أديرة جديدة، وإلغاء عدد من الأديرة وتحويل نزلائها إلى الحياة المدنية، ثم أعلن إلغاء الديرية والرهبنة، وكان زواجه تطبيقًا عمليًا وتدعيمًا لهذا الإلغاء[١].

ب- أولريخ زوينجلي (١٤٨٤- ١٥٣١م):

كان يدور في ذهن «زوينجلي» حاجة الكنيسة إلى الإصلاح في نفس الوقت الذي انبثقت فيه الفكرة عند «لوثر»[٢].

سويسري الأصل درس اللاهوت وألَمَّ بفلسفة القرون الوسطى، وحصل على درجة البكالوريوس ودرجة الماجستير من جامعة «باسيل»، ثم عين راعيًا لأبروشية[٣] «جلاروس»[٤]، ثم عين قسيسًا مرافقًا للجنود السويسريين الذين يحاربون في صفوف القوات البابوية[٥]، ثم عين واعظًا في أينسيدلن، وترامت شهرته في الخطابة

---

(١) نفسه ص ٣٧٨.

(٢) تاريخ الكنيسة ج٤ ص١٦٣.

(٣) منطقة اختصاص إحدى الأسقفيات، وكما ذكرنا سابقًا فإن النظام الكنسي يعتبر أن البابا هو: رأس الكنيسة ثم يأتي بعده رؤساء الأساقفة الذين يديرون مقاطعات تتكون من عدة أبروشيات، ثم يأتي هؤلاء الأساقفة وكل أسقف كان يشرف على أبروشية واحدة (راجع المسيحية في العصور الوسطى ص ٩٢، المسيحية في عصر الإصلاح ص١٤).

(٤) مدينة في سويسرا وهي عاصمة مقاطعة تعرف بهذا الاسم (أوربا في مطلع العصور الحديثة ص٤٦١).

(٥) راجع تاريخ الكنيسة ج٤ ص١٦٣، ١٦٤.

إلى مدينة زيورخ، وبرز اسمه منذ ذلك التاريخ بروزًا واضحًا قويًا في الأوساط الدينية والسياسية والاجتماعية في المقاطعة وتبوأ مكانًا عاليًا[1].

وسرعان ما قاد حركة إصلاح ديني انتهت إلى نتيجة مهمة لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم وهي انشقاق مقاطعات بأسرها من مقاطعات الاتحاد السويسري على كنيسة روما، وانقسام سويسرا إلى فريقين: فريق بروتستانتي من أنصار زوينجلي، وفريق كاثوليكي[2]، وقامت الحرب بينهما وقتل زوينجلي في موقعة كابل سنة ١٥٣١م[3].

كانت أهم المبادئ التي نادى بها زوينجلي أن الكتاب المقدس- عندهم- يجب أن يكون هو القائد والمعلم، وألح على زواج الإكليروس[4]، وهاجم عزوبة رجال الدين، وصكوك الغفران[5].

وأكد على أنه لا أساس للسلطة الروحية التي يطلق عليها اسم (الكنيسة) في الكتاب المقدس وفي تعاليم المسيح، وأنكر عقيدة المطهر، وقال إنها خرافة[6].

ج- جون كالفن (١٥٠٩- ١٥٦٤م):

فرنسي الأصل ولد في نويون بالقرب من باريس (على بعد حوالي ٩٠كم شمالي باريس سنة ١٥٠٩م). حصل له والده منذ نعومة أظفاره على وظيفة كنسية أمدته بدخل سنوي، وقد أعده والده لدراسة القانون فتعلم في باريس وأورليان، وبورج، وفي أثناء الدراسة اتجه كالفن إلى المسائل الدينية، وهي

---

(١) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٤٦٢.

(٢) نفسه ص٤٦٣.

(٣) د/محمد فؤاد شكري، د/محمد أنيس: أوربا في العصور الحديثة ج١ ص١٣٥، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو سنة ١٩٦١م.

(٤) تاريخ الكنيسة ج٤ ص١٦٦، ١٦٩.

(٥) قصة الحضارة مج٦ ج٣ ص١١٣.

(٦) نفسه ص١١٨، ١١٩.

التي شغلت المفكرين في عصره، فدرس آراء المصلحين الألمان، وقرأ كتاباتهم وصار يميل إلى المبادئ الجديدة[١]، واعتنق المذهب اللوثري واعتزل وظيفته الدينية في مايو ١٥٣٤م واضطر إلى مغادرة فرنسا لأن ملكها فرنسوا الأول كان قد أسرف إسرافًا بعيدًا في اضطهاد البروتستانت داخل فرنسا وتنقل كالفن بين مدن بال في سويسرا، وفرار في إيطاليا، وستراسبورج في ألمانيا[٢].

واتخذ جنيف مقرا له، وظل مقيمًا بها منذ أواخر سنة ١٥٣٦م حتى توفى باستثناء ثلاث سنوات من ١٥٣٨ إلى ١٥٤١م[٣].

يتفق «كالفن» مع «لوثر» «وزوينجلي» في أهم مبادئهما[٤]، وقد تفوق عليهما في انتشار آرائه، وذيوع صيته، وتأثيره القوي لدرجة أنه لقب بـ (المصلح الدولي الوحيد)، صحيح أن لوثر- كما يقول جون لومير- هو الذي قام بأعظم مواجهة درامية مع روما... إلا أن كالفن هو الذي نظم وعزز جهد الإصلاح ليتسع انتشاره ويصل إلى ما وراء حدود جنيف وسويسرا نفسها[٥]، واستطاع أن يجعل من جنيف المدرسة الكبرى لعقيدة الإصلاح البروتستانتي. كانت الكلفينية إذن أكثر أشكال الإصلاح البروتستانتي في فرنسا، وشكلت الجمهورية الهولندية، وقبلها الإسكتلنديون ديانة قومية لهم، وقبلتها المقاطعات البروتستانتية في سويسرا الشرقية، واعتنقها معظم المجريين الذين خرجوا على روما، وحتى في إنجلترا كان لها أثرها البارز[٦].

(١) أوربا في مطلع العصور الحديثة ج١ ص١٣٥، ١٣٦.

(٢) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٤٩٧.

(٣) أصول التاريخ الأوربي الحديث ص ١٥٣.

(٤) يقول ول ديورانت: «ولم تكن عبقرية كالفن تكمن في أنه يأتي بأفكار جديدة ولكن في تطوير آراء من سبقوه إلى نتائج منطقية» قصة الحضارة مج٦ ج٣ ص٢١٤.

(٥) تاريخ الكنيسة ج٤ ص٢٦٤.

(٦) أصول التاريخ الأوربي الحديث ص ١٥٤، لمزيد من التعرف على كالفن وحياته ومبادئه راجع: د/هاري إيبرتس: مصلح في المنفى (جون كالفن موجز عن حياته ومبادئه) ترجمة: وليم بيادي، دار الثقافة الطبعة الأولى سنة ١٩٨١م، د/حنا جرجس الخضري: جون كالفن حياته وتعاليمه. الطبعة الأولى دار الثقافة سنة ١٩٨٨م.

هل عالجت ثورة الإصلاح البروتستانتي كل أسباب النقد؟

إن الدراسة الموضوعية تقتضي معالجة هذا الموضوع من كل جوانبه بنظرة شمولية عامة ومتأنية.

فالنظرة المتسرعة أو الخاطفة لا تكفي، كما أن الاكتفاء بالنظر في بعض الجوانب لا يفيد في التقييم العلمي الموضوعي لعمل هذه الحركات الإصلاحية.

ومن ناحية أخرى فإن النظرة الخاصة لذوي الميول والنزعات المختلفة ليست بذات قيمة من الناحية العلمية؛ لأنها تعبر عن وجهة نظر أصحابها.

لا شك أن مساوئ الكنيسة وفسادها، وتدهور حالة رجال الدين المسيحي هي من الأمور التي كانت سببًا من أسباب السخط على الكنيسة ونقدها... ولذلك فإن معالجة هذه الأمور أو الثورة عليها يعد من وجهة نظر ما إصلاح، خاصة وأن الكنيسة كانت تمسك بزمام الأمور وتعالجها بالحديد والنار، فلم يكن يجرؤ أحد على الخروج على سلطة الكنيسة أو يتمرد عليها، أو يأتي برأي مخالف لما تقول به.

إن ثورة الإصلاح البروتستانتي- من هذا الجانب- استطاعت أن تفرض نفسها على الواقع الأوربي بالثورة على الكنيسة، وعلى بعض ما تقول به، ومن ثم نادت بإصلاح رجال الدين المسيحي، وإصلاح شأن الكنيسة في معالجتها لبعض الأمور، وساعدها على ذلك المتغيرات المختلفة حيث نمو المعارف والعلوم في أوربا خارج الكنيسة بعد أن كان العلم في العصور الوسطى يمر من خلال الكنيسة، إضافة إلى أن الأوربيين كانوا قد بدءوا يأخذون قسطًا من الحرية في معارفهم وعلومهم بعد أن كانت العصور الوسطى عصور ظلام واستبداد، وتعصب.

هذه الأمور لا شك ساعدت ثورة الإصلاح البروتستانتي أن تقوم بهذا

الدور، ويكون لها هذا التأثير في المجتمعات الأوربية فأصبح لها أتباع وكنائس مستقلة.

ومن ناحية أخرى فإن الوجه الآخر لهذه الثورة أن أصحابها انفصلوا عن الكنيسة، وكونوا لأنفسهم كنائس مستقلة وكانت لهم بعض المبادئ التي خالفوا بها الكنيسة الرومانية.

والسؤال الآن: هل يُعد الانفصال إصلاحًا؟!

إن الكنيسة الرومانية ما زالت قائمة وباقية، وما فعله أصحاب ثورة الإصلاح أنهم خالفوا الكنيسة الأم واستقلوا بإنشاء كنائس مستقلة.

ولذلك فإن هذه الثورة قد يراها البعض أنها كانت سببًا في إحداث شرخ في الكنيسة، أو أنها كانت سببًا في أن تفقد الكنيسة ما يمكن أن نسميه وحدة - تجاوزًا-.

إن ثورة الإصلاح من هذا الجانب تعد انقسامًا هدد وحدة الكنيسة الكاثوليكية التي ما زالت باقية وموجودة، وقائمة بهيئاتها ورجالها وتعاليمها، ومبادئها التي كانت سببًا في قيام حركة الإصلاح البروتستانتي.

إذن ثورة الإصلاح البروتستانتي لم تقض على الكنيسة وعلى مبادئها، وإنما خرجت عليها واستقلت بنفسها، وهذا لا يعد إصلاحًا!!

يقول د/أحمد شلبي: «**إن الحركة الإصلاحية فشلت من ناحية أنها لم تستطع تقويم الكنيسة التي كانت قائمة، ولم تفلح في التغلب على البابا وأفكاره وأتباعه فقنعت بإنشاء كنائس لها، تظهر فيها المبادئ الإصلاحية التي اعتنقتها وتركت آلاف الكنائس الأخرى تسير على النحو الذي كانت تسير عليه من قبل**»[1]، والأهم من هذا أن ثورة الإصلاح لم تجرؤ على أن تتناول الجذور والأصول التي كانت وما زالت سببًا في نقد الكنيسة أو بالأحرى سببًا في نقد المسيحية.

(١) المسيحية ص ٢٦١.

إن ثورة الإصلاح لم تعالج الأسباب الحقيقية لنقد المسيحية فلم يتطرقوا إلى العقائد المسيحية التي هي مثار النقد الأساسي مثل: عقيدة التثليث، والتجسد، والخلاص.

بل لم يبحثوا أصل الكتب المقدسة عندهم، ومدى صحتها من ناحية السند والمتن والنسبة!!

يقول الشيخ أبو زهرة: «إذا كان المصلحون قد قرروا أن يأخذوا مذهبهم الديني من الكتب المقدسة - عندهم- وقرروا أن يرفضوا سلطان المجامع والكنيسة معًا، فإن المنطق الذي يسيرون عليه كان يوجب عليهم أن يفرضوا أقوال المجامع القديمة: ومنها ألوهية المسيح، وألوهية الروح القدس... لكنهم لم يسيروا في منطقهم إلى أقصى مداه، فرفضوا آراء الكنيسة في أمور.. ولم يتوجهوا إلى لب العقيدة»[١].

إن الحركة الإصلاحية كانت إصلاحًا للكنيسة لا إصلاحًا للمسيحية - كما يقول د/أحمد شلبي- والفرق بين الموضوعين كبير، ومعنى هذا أن ما أثار لوثر ومن عاصره هو أفعال الكنيسة في ذلك العهد، وأما البحث في الأشياء المهمة التي دخلت على المسيحية فلم يكن موضوع إصلاح عند لوثر ومعاصريه... لم يثوروا إلا على ما ابتدعته الكنيسة في عهدها الأخير كغفران السيئات، والاستحالة، وحق تفسير الكتاب المقدس... ولذلك بقيت موضوعات ضخمة لم يتطرق لها الإصلاح[٢].

وأخيرًا فإن ثورة الإصلاح لم تكن كافية لإقناع العقل الأوربي بالمسيحية، إن أسباب النقد، والنزاع بين المسيحية والعقل وغيرها أمور ما زالت باقية، ولذلك لم يقتنع المفكرون الأوربيون بهذه الثورة وقاموا هم أنفسهم بمحاولات أخرى للتخلص أو التحرر من الدين المسيحي ما دام الإصلاح

---

(١) محاضرات في النصرانية ص٢٢٦.

(٢) المسيحية ص٢٦١.

أصبح متعسرًا.

ولذلك ظل الصراع بين الدين والعقل باقيًا حتى بعد ثورة الإصلاح البروتستانتي. بل إنه زاد واشتد حتى كاد أن يعصف بالمسيحية. لقد أقنع الإصلاح من يريدون الاقتناع بالوقوف عند حد معالجة ظواهر الأمور، لكنه لم ولن يقنع الذين يريدون الأصول. نحن نريد إصلاحًا يعالج الحقائق والجذور وبواطن الأمور. إن إصلاح الفروع لا يغني العقلاء، ولا يشفي غليل الحكماء!

* * *

رابعا: ثورة العقل الأوربى على الدين المسيحي

ثار العقل الأوربى على المسيحية وتمثلت هذه الثورة في صورتين:

الأولى:

ثورة على الكنيسة حيث فشا الفساد والانحلال في النظام الكنسي جميعه وقاد هذا رجال الإصلاح البروتستانتي إلى الثورة على الكنيسة «وعارضوا مظاهر الطقوس الدينية، واحتكار رجال الكنيسة للسلطة الدينية، وسلطة البابا المطلقة»[(١)].

وقد تحدثنا عن هذه الثورة وبينا تأثيرها ونضيف هنا: أنها أفضت من غير قصد إلى تحرير العقل الأوربي من قيود العقيدة الدينية[(٢)] وتمثل هذا في الصورة التالية.

الثانية:

ثورة على المسيحية كدين يعوق الفكر، ويقف عقبة أمام التقدم العلمي، وحجر عثرة أمام البحث العلمي المستقل القائم على العقل والمنطق.

واتخذت هذه الثورة تحرير العقل الأوربي من القيود التي عطلت تفكيره وأوقفت نشاطه في العصور الوسطى.

ولذلك لوحظ أن شواهد التنافر والاختلاف بين العصور الوسطى وما سمى بعصر النهضة[(٣)] كثيرة. ففي العصور الوسطى كان الأوربي يميل إلي الانصياع

---

(١) جورج سباين: تطور الفكر السياسي. الكتاب الثاني ص ٤٣٥. ترجمة: حسن جلال العروسي مراجعة: د/ محمد فتح الله الخطيب. دار المعارف سنة ١٩٦٤م.

(٢) قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص ١٦١.

(٣) تبدأ العصور الوسطى - كما سبق أن بينا - بسقوط الدولة الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ م وتستمر نحو عشرة قرون يسمى نصفها الأول بعصر الآباء ونصفها الثاني بالعصر المدرسي، ثم يبدأ عصر النهضة في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر وينتهي بنهاية القرن السادس عشر وتبدأ العصور الحديثة بالقرن السابع عشر، ولكل عصر خصائص تميزه عن العصر الذي يسبقه والعصر الذي يلحق به (راجع د/ توفيق الطويل: أسس الفلسفة هامش ص ٥٣. الطبعة الخامسة. دار النهضة المصرية سنة ١٩٦٧ م.

للكنيسة، ويرضى عن الجهل الذي يجعل صاحبه أكثر استجابة لأوامر الدين المسيحي أو السلطة البابوية، ويحصر المعرفة في اللاهوت لأنها الطريق الوحيد إلى الخلاص.

أما عصر النهضة فقد اختلف فيه الأمر إذ احتوته الثقة بالعقل، واستغرقه حب الاستطلاع الحر، واشتد كلفه بالعلم، ونبذ العقائد التي كانت سبباً في التحكم فيه[١].

وتمثل هذا في اتجاه العقل الجديد في طريقين:

الأول: إحياء الروح القديم فانطلق دعاة المذهب الإنساني - منذ القرن الرابع عشر حتى السادس عشر - إلي بعث ما عرف من آداب اليونان والرومان، مسترشدين بها في إخضاع الدنيا لصالح هذا الإنسان الجديد[٢].

إنها كانت فترة إعادة اكتشاف العلوم اليونانية[٣].

كان رواد الفكر الجديد في عصر النهضة يعتقدون أن التراث العقلي اليوناني كفيل بتكوين الإنسان، ومن هنا كان حرصهم على الرجوع إليه واهتمامهم بالعمل على إحياء كنوزه، وأطلقوا على الآداب القديمة (الإنسانيات) وتأكدت النزعة الإنسانية التي اتجهت إلي الإعلاء من شأن الفكر الإنساني ورد القيم إلي العقل لا إلي الدين، والنفور من التقليد والجمود والتمرد على السلطة التي تقيد انطلاق العقل، ونزع هؤلاء إلي تعلم اليونانية حرصاً منهم على ترجمة تراثها من منابعه إلي اللاتينية - لغة العلم في ذلك العصر في البلاد الأوربية - وتكفل ظهور المذهب الإنساني وسيادة النزعة

---

(١) قصة الصراع ص ١٦٠، ١٦١ راجع أيضا: دانيل بارودى في محاضراته عن الأخلاق والتى عنونها بـ «الرجل المهذب» ضمن كتاب من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث ص٧١ ترجمة: د/ محمد مندور، سلسلة عيون الأدب الغربى، العدد الثانى عشر. الطبعة الأولى. لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٤ م.

(٢) قصة الصراع ص ١٦١.

(٣) تاريخ الكنيسة جـ ٤ ص ٧٠.

الفردية وهدم قيم العصور الوسطى، تكفل هذا كله باستقلال الفلسفة عن الدين وتوجيهها إلي معاداته في تلك الآونة من تاريخها[١].

إن فلاسفة النزعة الإنسانية وجدوا في الكنيسة معوقًا لتقدم الفلسفة الجديدة.

إن العقيدة اللاهوتية في فلسفة العصور الوسطى، وسلطة البابوية المسيطرة بالكامل، كبتت الفكر المبدع، وأصابته بالشلل، وحطمت جهود أولئك الذين يفكرون في ذلك[٢].

الثاني: وثانى الطريقين اللذين سلكهما العقل الجديد يتجلى فى اهتمامه بالطبيعة الحافلة بالحقائق ونزوعه إلى ارتياد المجهول من آفاق العلم الطبيعى، إذ انبعثت صيحة روجر بيكون[٣] بالدعوة إلى التجربة والاختبار واستجاب لها العلماء والفنانون وأنشأت الجمعيات العلمية صدى لهذه الدعوة، ومهد هذا لنشأة العلوم الطبيعية مؤيدة بالمخترعات الحديثة، وانساق الناس إلي الكشف الجغرافى التماسا لحقيقة تسفر عنها مشاهداتهم واتفق رواد الفكر الجديد على استهجان الكتب القديمة والسلطة الدينية مصدراً لعلمهم بالطبيعة الكونية ومضى العقل في محاولة اكتشاف الجديد في شتى صوره، وأمعن في تحطيم القيم المعتمدة في عصره[٤].

---

(١) د/ توفيق الطويل: مدخل لدراسة تاريخ الفلسفة (ضمن كتاب: العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبى ودراسات علمية أخرى) ص ٢٧٠. الطبعة الأولى. دار النهضة العربية سنة ١٩٦٨م.

(٢) تاريخ الكنيسة جـ ٤ ص ٧٠.

(٣) راهب فرنسيسكانى درس في كل من أكسفورد وباريس، ويمتاز بشعوره القوى بأهمية التجربة وضرورتها وأكثر ما نعى على أهل عصره وبخاصة أساتذة باريس، عدم عنايتهم بالطريقة التجريبية، وصرح بأن هذا التقصير سبب جهل المثقفين بجميع أسرار العلم تقريبا (راجع يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ص ١٥٣ - ١٦٠، د/ عبد الرحمن بدوى: فلسفة العصور الوسطى ص١٦٨ - ١٧٢، كراوذر صلة العلم بالمجتمع جـ١ ص٢٢٣-٢٢٧.

(٤) قصة الصراع ص ١٦٢.

إن شدة الاهتمام بالطبيعة فى هذا العصر - عصر النهضة - يعتبره المحللون رد فعل لما كان الأوربيون عليه فى العصور الوسطى من الاتجاه إلي الرهبنة، وتعذيب الجسد واللجوء إلي الكنيسة ورجال الدين المسيحى باعتبارهم الملجأ والملاذ فى علاج المشكلات.

(إن العصور الوسطى كانت ترى القدسية - كما يقول بارودى - إلي حد بعيد صراعاً ضد الطبيعة فمثلها الأعلى كان كله زهدا، وقد رسمت للحياة الروحية صورة تتضمن الحذر من الجسم واحتقاره هو وكل ما به من ميول وقوى احتقارا امتد إلى كل ما يشابه ذلك الجسم، إلي كل ما هو مادة وحقيقة مجسدة إلي الطبيعة كلها، ولقد كان فى احتقار الطبيعة خوف منها، وذلك لأنها بتعدد صورها، وإشراق تلك الصور، وبتوثب غرائزها ساحرة مغرية، إنها شيطانية، وما الفضيلة فى جوهرها إلا الإفلات من حبائلها، وإذا كان هناك من يرفق بها من رجال القرون الوسطى فما ذلك إلا بمقدار ما يحتمل أن تعتبر رمزا للروح، ومن ثم كان موقفهم الأخلاقى يدعو إلي التجرد من الحياة وتعذيب الجسم، كما كانت إدانتهم للفنون المجسدة وللعلوم الطبيعية والتجريبية ولقد كانت المعرفة الحقيقية عندئذ هى اللاهوت وما وراء الطبيعة فتلك هى علوم الروح التى تستحق وحدها - فى نظرهم - أن يتابع درسها، لأنها دون غيرها تؤدى مباشرة إلي الخلاص)[١].

ويتابع بارودى القول مقارنا بين ما عليه الأوربيون في العصور الوسطى وعصر النهضة فيقول (أما النهضة فعلى العكس من ذلك إذ ردت إلي الطبيعة بكافة مظاهرها كل اعتبار، فكل ما هو طبيعى حى قد لاح لها جميلا مشروعا فالفن قد توافر على محاكاة الصيغ الجسمية محاكاة قوية خالية من كل تزمت كما توافر العلم على ملاحظة قوى الطبيعة وفهمها[٢].

---

(١) بارودى: الرجل المهذب، ضمن كتاب (من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث) ص٧١.

(٢) المرجع السابق .

ويضيف (لقد سار رجال النهضة إلي أبعد مدى في ردهم للطبيعة اعتبارها حتى لتراهم يبررون شهوات النفوس تبريراً تاما، ففى إيطاليا وفى فرنسا كانوا يعجبون قبل كل شيء بغزارة الحياة، والنشاط المعنوى الحيوى، وقد لاحت لهم كل قوة طبيعية مشروعة ما دامت ذاتية متدفقة، ولقد كان العصر عصر انتشار التجارة في أوربا، عصر الاختراعات الكبيرة، عصر الطباعة التى تغذى ما عند البشر من حب للاستطلاع، وتحقق ما تصبو إليه نفوسهم من كبرياء الحرية) [١].

وهكذا يمكن القول: إن أوربا دخلت بعصر النهضة - الذى جاء ثورة على المسيحية - مرحلة جديدة من حياتها استقلت فيها بنفسها بعيدا عن الكنيسة ورجالها وخرافاتها، وأمعنت في الاهتمام بالإنسان والطبيعة.

وفيما يلى تلخيص لأهم النتائج المترتبة على ثورة العقل الأوربى على المسيحية:

١- تحرر الفكر الأوربى من القيود الثقيلة التى كانت تفرضها الكنيسة على حرية الفكر وحرية البحث العلمى [٢] وكان هذا له أثره في الخروج على تعاليم الكنيسة.

٢- تركزت الكراهية ضد الكنيسة، وانصب الغضب على الأداة التى قيدت العقول، ثم قويت هذه الكراهية بدرجة التحرر من الإيمان بالمسيحية أو العقيدة المسيحية ذاتها التى اعتمدت عليها الكنيسة في فرض سيطرتها على العقل والفكر [٣].

لقد كان هناك أشخاص مثل (فرانسوا رابيليس) الفرنسى (١٤٩٤ - ١٥٥٣)

---

(١) بارودى: الرجل المهذب، ضمن كتاب (من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث) ص٧١.

(٢) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص٣٦٤.

(٣) أوربا في العصور الحديثة جـ١ ص١١٨.

الذين كتبوا روايات هجومية قاسية ساخرين من الكنيسة ومعبرين عن كراهتهم للنفاق، والتقاليد والأنظمة المتجمدة خصوصا الكنيسة[١].

ومما ينبغى أن نشير إليه هنا أن الثورة على الدين المسيحى في هذا العصر لم تكن إلا مرحلة من المراحل النهائية لتحرر الكثيرين من المفكرين الأوربيين من هذا الدين فيما بعد.

فلم تقض ثقافة هذا العصر - فيما يقول بيورى - إلي ثورة عقلية عامة ترمى إلي اجتياح المعتقدات الدينية، بل اتخذ العالم بالتدرج مظهرا معاديا من غير شك لتعاليم الدين التى ذاعت في العصر الوسيط[٢].

٣- الانحلال الخلقى الذى صاحب ما كان في النهضة من تقدم علمى. لقد خرجوا على تعاليم الكنيسة واستهوتهم حياة اللهو والمرح وتطور بهم الحال إلي أن انغمسوا في حياة التبذل والتهتك ونبذوا التقاليد الدينية والآداب العامة[٣].

تمرد هذا العصر وثار على تقييد الحرية فى مجال الأخلاق، والآداب وميادين العلم والفن والفلسفة جميعا، فتلاشت قيود الآداب والنظام، وانطلقت الشهوات من عقالها، وفشى الفساد حتى استغرق العصر كله... لقد لحق بهذا العصر أن فقد الأوربيون الإيمان، وتحرروا من قيود الأخلاق، والمثير للدهشة أن شارك رجال الدين فى هذا الفساد مما أدى إلى التهجم عليهم والتشهير بآثامهم وخاصة من رجال الإصلاح البروتستانتى[٤].

وقد صور ول ديورانت هذا الانحلال فقال (إن شطراً كبيراً من الطبقات المتعلمة في إيطاليا عام ١٥٠٠ قد فقد إيمانه بالمسيحية الكاثوليكية.. بل إن

(١) تاريخ الكنيسة جت٤ ص٧٠.
(٢) قصة الصراع ص١٦٤.
(٣) أوربا في مطلع العصور الحديثة ص٣٦٤.
(٤) قصة الصراع ص ١٦٢.

الدين حتى بين الطبقات غير المتعلمة قد فقد بعض ما كان له من سلطان على الحياة الأخلاقية)[١].

ثم يقول (وكانت نسبة متزايدة من السكان قد نبذت العقيدة القائلة بأن القانون الأخلاقي موحى به من عند الله، وما كاد يبدو للناس أن الوصايا العشر من وضع البشر... حتى فقد ذلك القانون الأخلاقي ما كان له من رهبة وقوة، فلم يعبأ أحد بالمحرمات، وحل محلها قانون جر المغانم وانتهاب اللذات وضعف شعور الناس بالخطيئة، والرهبة من الجريمة، وتحرر ضمير الناس من القيود أو كاد، وأخذ كل إنسان يفعل ما يبدو له ميسرا ولو لم يكن مما اعتاد الناس أن يروه حقا، ولم يعد الناس يرغبون في أن يكونوا صالحين، بل كل ما يريدونه أن يكونوا أقوياء، ومارس كثيرون من الناس الغش والخداع لقد رأى الناس أن يمتعوا أنفسهم على ظهر الأرض وتركوا العنان لشهواتهم)[٢].

ثم يقول (إن الكتاب الإنسانيين لم يكونوا أقل فسادا من رجال الدين الذين يوجهون لهم سهام النقد)[٣].

٤- أخيرا فإن التحرر من القيود الفكرية التى فرضتها الكنيسة سوف يتيح للمفكرين الأوربيين أن يرتادوا كثيراً من الميادين العلمية التى كانت محظورة في العصور الوسطى.

وسوف تتكشف نتيجة لهذا حقائق جديدة، ونظريات علمية لم تكن معروفة، تخالف ما كان الناس يعتقدونه ويؤمنون به في العصور الوسطى.

وبعبارة أدق تناقض ما تؤمن به الكنيسة. مما يترتب عليه أن المرحلة التالية لهذا سوف تشهد صراعا بين ما ادعته الكنيسة وفرضته على الناس فرضا من أمور علمية، وبين ما يكتشفه العلم من حقائق ونظريات علمية.

---

(١) قصة الحضارة المجلد الخامس ج ٤ ص٨٠.

(٢) نفسه ص ٨١.

(٣) نفسه ص ٨١.

خامسا: الصراع بين الدين (المسيحية) والعلم في أوربا

أسباب الصراع:

إن حركة الإصلاح البروتستانتي - كما سبق أن بينا - ثارت على السلطة البابوية، وأنكرت عصمة رجال الدين، واتخذت لنفسها مبدأ أن الخضوع يكون لحكم الكتاب المقدس وحده بمعنى أنه المصدر الوحيد الذى يجب الاعتماد عليه في تفسير المسائل الدينية.

وأصبح المسيحيون في أوربا تبعا لهذا: إما أنهم يتعلقون بسلطان الكنيسة وسلطان البابوية، أو يتعلقون بسلطان الكتاب المقدس وحده.

وفى ظل التقدم العلمى فى أوربا، واهتزاز سلطة الكنيسة بعد ثورة الإصلاح، والتحرر العلمى من القيود التى فرضتها الكنيسة على العقول، برز أمر آخر وهو: مدى ملائمة أو موافقة ما تنتجه العقول الأوربية لما تؤمن به الكنيسة أو لما جاء فى الكتاب المقدس.

إن الكنيسة كانت تؤمن بآراء علمية معينة تناقلتها عن الآباء السابقين الذين فسروا الكتب المقدسة - عندهم -، وقد رأت الكنيسة صحة هذه الأراء وتبنتها وأقرتها حتى أصبحت في نظرهم حقائق لا يحق لأحد أن يشكك فيها، أو يقول بعدم صحتها.

لقد فرضتها الكنيسة على المسيحين فرضا، ولم تقبل فيها جدالا أو نقاشا.

هذا إلي جانب أن الكتاب المقدس نفسه يحتوى على آراء علمية أثبت العلم عدم صحتها. ولذلك فإنه في ظل حرية البحث العلمى واستقلاله عن الكنيسة سوف نرى اختلافا ثم صراعا - بين ما يقوله الكتاب المقدس يؤمن به رجال الكنيسة وبين ما تنتجه العقول والأفكار، وتثبته البحوث العلمية التى تقوم على أساس من العقل.

هذه هى أهم أسباب الصراع[١] الذى نشب في أوربا بين المسيحية والعلم.

فالكنيسة لها دور كبير في حدوث هذا الصراع ولذلك فهى مسئولة عن النتائج المترتبة عليه والتى من أهمها تحرر العقل الأوربى من الدين.

وقد صور الشيخ أبو الحسن الندوى بعض هذه الأسباب فقال (إن من أعظم أخطاء رجال الدين في أوربا ومن أكبر جنايتهم على أنفسهم وعلى الدين الذى كانوا يمثلونه أنهم دسوا في كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية، ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية، ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم في ذلك العصر.. ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنسانى.. ذلك أن العلم الإنسانى يختلف من عصر لآخر فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصرا على كثيب مهيل من الرمل[٢].

فجناية رجال الدين المسيحى على دينهم كبيرة. إذ إن ما دسوه في كتبهم كان من بين أهم أسباب هذا الصراع.

ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن، واشتهر به الناس، وذكره بعض شراح ومفسرى العهدين القديم والجديد من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التى يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها، وألفوا في ذلك كتبا وتآليف،... وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل من لم يدن بها[٣].

---

(١) يضاف إليها الأسباب التى ذكرناها سابقا في موضوع «نقد الكنيسة» وكذا الأسباب التى ذكرناها في موضوع «بوادر النزاع بين الدين والعقل».

(٢) أبو الحسن الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٩٣ الطبعة العاشرة. دار الأنصار - دار القلم سنة ١٣٩٧هـ.

(٣) نفسه نفس الصفحة.

مقاومة الكنيسة لأسباب الصراع:

لا شك أن الكنيسة لن تستسلم لهذا الاتجاه الجديد ولن تسلم به، لأن الأمر مرتبط بالطعن في صحة ما تؤمن به من عقائد ومبادئ، والطعن في صحة الكتاب المقدس نفسه.

إن الكنيسة ليست على استعداد للتضحية بمبادئها وآرائها، فلن تتخلى عما تؤمن به، ولن تتنازل عن صحة كتابها المقدس، ولذلك فإنها سوف تستخدم ما تبقى لها من سلطان، لتنكر وتقاوم هذا الاتجاه الفكرى الجديد الذى تحرر من كل القيود، إذ أنه يهدد كيانها الدينى.

(أزعج هذا الاتجاه الجديد رجال الدين المسيحى، ووطدوا العزم على تطهير الجو من آثاره، وتضافر الكاثوليك والبروتستانت على مطاردة أصحابه وبدت المقاومة رفيقة مع من يستجيب لمطالب الكنيسة ويذعن لأوامرها فيوقف مواصلة أبحاثه، ويكف عن التبشير بالجديد من آرائه، وكانت المقاومة عنيفة دامية مع كل من ركب رأسه وجهر بالعناد مع رواد الفكر الحديث)[1].

ضاق رجال الدين المسيحى بهذا الاتجاه ونهضوا لمقاومته.

ففى فرنسا عرفت باريس عام ١٦٢٤ م طائفة من شبان العلماء المشتغلين بمنهج البحث التجريبي... ولكن برلمان باريس قد قرر مسوقا بمساعى رجال الكهنوت تحريم هذه المباحث الكيميائية الجديدة، وأنذر من لا يذعن لقراره بعقوبات صارمة.

وفى إيطاليا نهض الإكليروس لمقاومة الروح العلمى ومطاردة رجاله، فأكاديمية البحث الطبيعى التى أنشأها تليزيو في نابلى عام ١٥٦٠ م أثارت فزع الإكليروس، فسارع إلى القضاء عليها[2].

---

(١) قصة الصراع ص ١٦٧.

(٢) نفسه ص ١٦٨.

هذا الموقف من الاتجاه العلمى لم يكن خاصا بالكنيسة الكاثوليكية وحدها.

يقول ول ديورانت (ولم تستطع البروتستانتية أن تؤيد العلم، لأنها أسست صرحها على كتاب مقدس معصوم) [١] « إن العلم يهدد سلامة وصحة الكتاب المقدس ولذلك وقفت حركة الإصلاح البروتستانتى موقف العداء من هذا الاتجاه العلمى الجديد.

ويقول د / توفيق الطويل (إذا كانت الكاثوليكية قد ناصبت أحرار الفكر العداء، وأصلتهم نارها من غير رفق ولا هوادة، فإن البروتستانتية كادت تشبهها قسوة ومرارة)[٢] (فليس من شيء كان أبعد عن عقول قادة الإصلاح الدينى من التسامح مع النظريات المخالفة لآرائهم)[٣].

ولذلك فإن (كالفن) كان لا يتردد قط في إعدام من خالفه في مذهبه، وموقفه من مصرع (سرفيتوس) خير شاهد على هذا، فقد كتب (سرفيتوس) يهاجم عقيدة التثليث متأثرا في ميله إلى الوحدانية بما عرفه عن الإسلام، ولكنه حوكم وسجن في ليون (لأسباب كان منها دسائس كالفن) ولكنه فر من سجنه ولاذ مسرعا بجنيف حيث يقيم كالفن وحكومته. ولما حوكم أدين وصدر قرار بإعدامه عام ١٥٥٣ م[٤].

وبنفس هذه الروح قاومت إنجلترا البروتستانتية الحركة العلمية الجديدة وتجلت المقاومة في عدائها للجمعية الملكية والمجمع البريطانى لتقدم العلم، وكثيرا ما اتخذت المقاومة صورة التهجم وتوجيه الحملات إلي العلماء[٥].

---

(١) قصة الحضارة مجلد ٦ جزء ٦ ص١١٥.
(٢) قصة الصراع ص ٥٣.
(٣) نفسه ص٥٥.
(٤) نفسه ص٥٧.
(٥) نفسه ص١٧٣.

احتدام الصراع:

كانت التحولات الجديدة فى الفكر الأوربى، والمقاومة الكنيسية لها، كفيلة باشتداد الصراع بين الدين والعلم.

إن التطور الكبير فى التفكير الأوربى بات ينذر بهدم ما اعتمدته الكنيسة من مسائل علمية، ورفض التقليد السائد لبعض القضايا العلمية الذى آمن به رجال الدين المسيحى، والخروج على المألوف ببيان أن الآراء العلمية التى تحظى بالتكريم والقبول لدى آباء الكنيسة آن لها أن تنزوى وتختفى إذ أثبت العلم الحديث عدم صحتها، ومناقضتها للحقيقة العلمية.

قلنا: إن الكنيسة لن تسلم بهذا التحول الجديد، ولن تعدل موقفها بسهولة. ولن تعلن عدم صحة ما ذهبت إليه، إذ أنه يعنى بطلان المعايير - الكتاب المقدس، تفسيرات الآباء - التى على أساسها اعتمدت هذه الآراء العلمية دون غيرها.

أدى كل هذا إلى احتدام الصراع واشتداده، فى محاولة يائسة من الكنيسة لإثبات أصحاب الفكر الجديد عن المضى قدما فيما ذهبوا إليه، ومنعهم - حتى ولو بقوة الحديد والنار - من إذاعة ونشر نظرياتهم الجديدة على الناس. لكنها - رغم شدة المقاومة - لم تستطع أن تعطل مسيرة الفكر الأوربى الحديث، أو أن توقف تلك التحولات التى شكلت منعطفا جديدًا فى الفكر الأوربى الحديث.

أعتقد أن أبرز ما يمثل ذلك النوع من الصراع[١] الذى وصل إلى ذروته في القرنين السادس عشر والسابع عشر نظريات علم الفلك الحديث التى أحدثت دويا هائلا زلزل أركان الكنيسة.

---

(١) هناك أمثلة عديدة منها: موقف الكنيسة من عمران الجانب المواجه لموطننا من الأرض. لكن يبقى علم الفلك الحديث وما أثاره أبرز الأمثلة لاحتدام الصراع بين الكنيسة والعلم.

وكانت البداية مع كوبر نيكوس، ثم كبلر وجاليليو وسوف نتحدث عن ذلك بإيجاز بما يتوافق مع طبيعة هذا البحث.

وتفصيل ذلك الأمر على النحو التالي:

أ- اعتناق الكنيسة لرأيي (أرسطو) و (بطليموس) في الفلك:

(كانت الكنيسة في نظرتها إلى مكان الأرض من سائر الكواكب قد اعتنقت رأى أرسطو منذ القرن الثالث عشر، ورأى بطليموس طوال العصور الوسطى)[1] إذ قرر الأول (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) منذ القرن الرابع قبل الميلاد أن الأرض ساكنة في مركز العالم لأنها من تراب، والمكان الطبيعى للتراب هو أسفل[2] فهى ثابتة لا تدور ألبتة لا حول نفسها ولا حول غيرها، لأنها لو كانت تدور حول نفسها ثم قذفت بحجر إلى أعلى لما هوى في نفس المكان الذى قذفَ منه بالضبط، بل لهوى في مكان غيره، لأن الزمن الذى يصعد فيه الحجر يسمح للأرض بأن تدور بالقدر الكافي لتغيير هذا المكان، ولو أنها كانت تدور حول غيرها لشاهدنا تغير مكان النجوم الثابتة في ليلة عنها في أخرى، مع أن الواقع هو العكس في كلا المثالين لأن الحجر يهوى في مكانه، والنجوم تشاهد في مواضعها، إذن الأرض ثابتة لا تتحرك كما يرى أرسطو[3].

ثم جاء بطليموس[4] في القرن الثانى الميلادى ووضع كتابه المعروف

---

(١) نفسه ص١٧٦.

(٢) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية ص١٥٠ الطبعة السادسة. لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(٣) د/ محمد غلاب: الفلسفة الإغريقية ج٢ ص٥٣ الطبعة الثانية. مكتبة الأنجلو المصرية.

(٤) بطليموس: عالم فلك ورياضة وجغرافيا وفيزياء، ومؤرخ يونانى مصرى نشأ بالإسكندرية وكان لكتابيه المجسطى والجغرافيا السيادة على علمى الفلك والجغرافيا لمدة أربعة عشر قرنا، حتى جاء كوبر نيكوس في القرن السادس عشر بنظريته الجديدة في علم الفلك (راجع توماس كون: بنية الثورات العلمية ص٢٩٨.

ترجمة: شوقى جلال، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٦٨ سنة ١٩٩٢م الكويت.

«بالمجسطى»[١] ودوّن فيه فروع علم الفلك فبقى المرجع الأساسى إلى القرن السادس عشر الميلادى، وقرر سكون الأرض باعتبارها مركز الكون، ودوران الشمس وسائر الكواكب حولها[٢].

(كان بطليموس يرى أنه من المؤكد أن الأرض ساكنة وأن قبة السماء تتحرك حولها حاملة معها النجوم والشمس والقمر)[٣].

اعتنقت الكنيسة هذا الرأى، وأهملت الرأى المضاد الذى عرف عند قدماء الفيثاغورية.

إذ افترض هؤلاء أن مركز العالم يجب أن يكون مضيئا بذاته، لأن الضوء خير من الظلمة، ويجب أن يكون ساكنا لأن السكون خير من الحركة، فليست الأرض مركز الكون وإنما «نار غير مرئية»[٤].

وكان من رأى فيلولاوس الفيثاغورى - الذى عاش في القرن الخامس قبل الميلاد - أن الأرض وسائر الكواكب تدور حول هستيا وهى نار مركزية لا نراها لأن كل أجزاء الأرض المعروفة تحول بعيدا عنها.

---

(١) المجسطى بكسر الميم والجيم وتخفيف الياء والاسم ترجمة عربية محرفة للاسم الإغريقى. واللفظ اليونانى (مجسطوس) يعنى العظيم. وترجمة العنوان الكامل (التصنيف التعليمى العظيم) وهو أول كتاب دون كل فروع علم الفلك القديم، وقد نقل إلى العربية. وهذا الكتاب يضم مسائل وتفسيرات للأجرام السماوية وعلاقتها بالأرض.

ويتضمن مشاهدات وأرصادا وتقنيات مأخوذة إلى حد كبير من أعمال هياركوس الروديسى وهى أعمال مفقودة، ويشتمل المجسطى على ثلاثة عشر بابا وكتابا (راجع: بنيامين فارنتن: العلم الإغريقى جـ٢ ص١٦١ ترجمة: أحمد شكرى سالم. سلسلة الألف كتاب. مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٩م، تاريخ الفلسفة اليونانية ص٢٤٣، بنية الثورات العلمية ص٢٩٨).

(٢) قصة الصراع ص ١٧٦.

(٣) هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية ص٩٣ ترجمة: د/ فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الثانية سنة ١٩٧٩م بيروت.

(٤) تاريخ الفلسفة اليونانية ص٢٥، راجع أيضا: إيروين شرودنجر: الطبيعة والإغريق ص٦٧ ترجمة: عزت قرنى. سلسلة الألف كتاب سنة ١٩٦٢م.

وقد روى شيشرون[١] أن هيكيتاس السيراكيوزى - وهو من فلكى القرن الخامس قبل الميلاد أيضا - كان يعتقد أن الشمس والقمر والنجوم ثابتة، وأن حركتها الظاهرية مرجعها دوران الأرض حول محورها.

وذكر أرخميدس[٢] وبلوتارخ[٣] أن أريستارخوس الساموسى[٤] (٣١٠ - ٢٣٠ ق.م) رأى أن الأرض تدور حول الشمس وأنه اتهم بالضلال[٥] وبإقلاق راحة الآلهة، وبالمروق من الدين لمحاولته أن يزحزح - هستيا - موطن الكون من مكانها[٦].

ويقول بلوتارخ إن سلوقس البابلي أحيا الفكرة في القرن الثانى قبل الميلاد. وعورضت هذه النظرية مرة أخرى على يد «بوزيدونيوس»[٧] لأسباب دينية[٨].

ولسنا ندرى - كما يقول د/ عثمان أمين - على التحقيق وجه معارضة الرواقيين لهذه النظرية مرتين[٩] ولعلها معارضة مدارها الغريزة لا الأسباب

---

(١) شيشرون ماركوس (١٠٦ - ٤٣ ق.م) فيلسوف وسياسى رومانى أعظم خطباء الرومان قاطبة، وتعتبر خطبه من روائع النثر اللاتينى.

(٢) أرخميدس (٢٨٧ - ٢١٢ ق.م) رياضى وفيزيائى يونانى اكتشف مبدأ الثقل النوعى.

(٣) بلوتارخ (٤٦؟ - ١٢٠ م) كاتب سير يونانى.

(٤) فلكى وعبقرى يونانى قال عنه د/ عثمان أمين (إنه كان أول من تنبه إلى أن الأرض تدور حول محورها حول الشمس) ا. هـ الفلسفة الرواقية ص٦٦ أعتقد أن د/ عثمان أمين قد جانبه الصواب فى هذا لأنه ليس أول من قال بهذا القول ويدل على ذلك تلك النصوص التى أوردناها قبل هذا النص وهى تؤكد أن قدماء الفيثاغورية فى القرن الخامس قبل الميلاد هم أول من قالوا بهذا الرأى.

(٥) قصة الحضارة مج ٦ جـ٦ ص١٢٧، نشأة الفلسفة العلمية ص٩٣.

(٦) د/ عثمان أمين: الفلسفة الرواقية ص٦٦ الطبعة الثالثة مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧١م.

(٧) مؤرخ وفيلسوف سورى الأصل عاش من سنة ١٥٣حتى ٥١ قبل الميلاد. اشتهر بسعة معارفه كان مؤرخا، وعالما طبيعيا وفيلسوفا، من أتباع المدرسة الرواقية، (نفسه ص٧٨، ٧٩).

(٨) يقول د/ عثمان أمين: (وكان «بوزيدونيوس» فلكيا كبيرا أقر بإمكان النظرية التى تذهب إلى أن الشمس مركز الأرض ولكنه عارض النظرية لأسباب دينية) نفسه ص٧٩، ٨٠.

(٩) الأولى على يد كليانتس الذى ولد سنة ٣٣١ق.م عندما عارضها أريستارخوس بحجة إقلاق الآلهة وقد أشرنا إلى ذلك في متن البحث. والثانية: على يد(بوزيدونيوس).

المعقولة.. ربما كان السبب في ذلك أن اعتبار الأرض واحدة من بين الكواكب التابعة للشمس كان فيه شيء من امتهان كرامة الإنسان ونذير خطر يتهدد نظرية العناية التى تقول بأن الكون إنما خلق فحسب ابتغاء سعادة الآلهة - كما يعتقدون - وسعادة الإنسان[١] ثم جاء بطليموس في القرن الثانى الميلادى ليؤكد القول بنظرية وضع الأرض المركزى، ويقضى على أمل انتصار القول بوضع الشمس المركزى في العصور القديمة[٢].

تمسكت الكنيسة برأى (بطليموس) في القول بسكون الأرض ومركزيتها للكون، وحتمت على العلماء أن يقولوا بذلك[٣].

لقد كانوا يحتمون على العلم أن يجزم بمقام الأرض في مركز الفلك، وكانوا يحتمون أن تمجد الأرض هنالك لتحقق الحكمة من خلق الأحياء على التعميم، وخلق الإنسان على التخصيص[٤].

ولذلك فإن علماء الفلك المسيحيين في القرن الثالث كانوا يتصورون - كما يذكر ول ديورانت - أن الكواكب تدور حول الأرض، وأن النجوم الثوابت مرصوصة في قبة من البلور يسيرها العقل الإلهى، وتدور في حشد منظم حول الأرض وأنها مركز الكون كله، وأرقى ما فيه هو ذلك الإنسان[٥].

أقر المسيحيون هذا الرأى وأيدوه بأدلة من كتابهم المقدس.

إذ أثبت «كليمان الأسكندرى ١٥٠ - ٢١٧ م»[٦] أنه يتفق مع ظاهر التوراة - التى يؤمنون بها - ويساير روحها. وسرعان ما اتصلت الفكرة بتعاليم الإنجيل وقواها

---

(١) نفسه ص٨٠.

(٢) قصة الحضارة مج ٦ جـ٦ ص١٢٧.

(٣) د/ محمود عتمان: الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ص٣٩. ط أولى. مكتبة الأنجلو المصرية.

(٤) عباس العقاد: عقائد المفكرين في القرن العشرين ص٣٤ دار المعارف سنة ١٩٨٤م.

(٥) قصة الحضارة مج٤ جـ٦ ص١٧٢.

(٦) عن كليمان الأسكندرى وفلسفته راجع يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية ص٢٦٩.

أمثال (توما الأكوينى ١٢٢٥ - ١٢٧٤م)[1] في مولفه (الخلاصة اللاهوتية) وروج لها شاعر المسيحية «دانتى ١٢٦٥ - ١٣٢١»[2] وغيرهما ممن استغلوا الفكرة في تبيان العلاقة بين الله والبشر. وسايرت النظرية موقف الكنيسة من الإنسان وأن مكانه ينبغي أن يكون هو مركز الكون بالإضافة إلى أن الفداء المسيحى[3] قد تم على هذه الأرض[4].

وهكذا أكدت الكنيسة نظرية بطليموس وآمنت بها ودللت على صحتها من كتابها المقدس، وتصورت أن الإيمان بحكمة القصد والتدبير في خلق الحياة على الأرض لا يتأتى إلا إذا كانت الأرض مميزة بين العوالم العلوية والسفلية وتصورت أن تميزها لا يتأتى إلا إذا كانت في مركز الكون كله وقامت الكواكب والشمس دائرة أو ثابتة من حولها[5].

ب- كوبر نيكوس ونظريته الجديدة:

ظلت الكنيسة على اعتقادها بصحة هذه النظرية حتى جاء «كوبر نيكوس ١٤٧٣ - ١٥٤٣ م»[6] صاحب نظرية دوران الأرض والكواكب حول الشمس

---

(١) عن توما الأكوينى راجع يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ص١٦٩، د/ عبد الرحمن بدوى: فلسفة العصور الوسطى ص١٣١.

(٢) راجع تاريخ أوربا في العصور الوسطى. القسم الثانى ص٢٧١ وما بعدها.

(٣) يعتقد المسيحيون أن ابن الله نزل من السماء ليفدى ويخلص البشرية من - خطيئة آدم والخطايا الأخرى. وقد بينا عدم صحة هذه العقيدة وفسادها في رسالة الماجستير «الخلاص المسيحى ونظرة الإسلام إليه» كلية أصول الدين - طنطا.

(٤) قصة الصراع ص ١٧٦، ١٧٧.

(٥) راجع الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ص٣٩ عقائد المفكرين في القرن العشرين ص٣٥.

(٦) برغم أن بعض العقول اليقظة - قبل كوبر نيكوس - قد أقرت خطأ نظرية بطليموس إلا أنه لم توجد نظرية مقبولة تحل محل نظرية بطليموس قبل أيام كوبر نيكوس (قصة الحضارة مج٤ جـ٦ ص١٧٢ وكوبرنيكوس هو: ميكولاى كوبرنيك كما تدعوه بولندة، أو نيكلاس كوبرنيج كما تدعوه ألمانيا، أو نيكولاوس كوبر نيكوس كما يدعوه العلماء (نفسه مج٦ جـ٦ ص١٢٦) وهو عالم فلك بولندى من أسرة غنية من أصل ألمانى ولد عام ١٤٧٣ وتوفى عام ١٥٤٣.

والتى هى أساس علم الفلك الحديث فأحدث ثورة هائلة في تاريخ العلم.

فبعد أن أنهى دراسته في جامعة كراكوف أصبح كاهنا في كاتدرائية فراونبورج ببروسيا الشرقية البولندية، ثم نزح إلى إيطاليا ودرس القانون الكنسى.

وفى جامعة بولوينا (١٤٩٧ - ١٥٠٠) درس الرياضيات والفيزياء والفلك، ثم بعد ذلك درس الطب ونال شهرة واسعة كطبيب، لكن الفلك هو الذى استحوذ على اهتمامه[١].

واصل أبحاثه في الفلك وحوالى عام ١٥١٤ لخص ما انتهى إليه من استنتاجات في (تعقيب موجز) لم يطبع في حياته، ولكنه وزع بعض نسخ مخطوطة على سبيل جس النبض وقرر فيه أن الأرض ليست هى مركز الكون، وأن كل الكواكب تدور حول الشمس التى هى مركز الكون، وأن ما يبدو لنا حركات للشمس لا ينشأ عن تحركها بل عن تحرك كوكبنا الأرضى الذى يجعلنا ندور حول الشمس كأى كوكب آخر[٢].

ثم واصل أبحاثه ووضع كتابه (حركات الأجرام السماوية) ولكنه تردد في نشره ثلاثة عشر عاماً، ونجحت بعدها مساعى أصحابه ومريديه، فاعتزم طبعه.. ثم تردد في مكان طبعه، لأن (روما) مقر الكثلكة و (تنبرج) مهد البروتستانتية، فلجأ إلى نومبرج، وعهد بكتابه إلى أوزياندر للإشراف على طبع الكتاب[٣].

ولم يجرؤ الناشر على إذاعة الكتاب من غير مقدمة، كان وجه الطرفة فيها أنها تنكر على صاحب الكتاب اكتشافه العلمى، فتزعم أنه فرض خيالى لا مذهب علمى[٤] لقد قدم أوزياندر للكتاب على النحو التالى دون أن يوقع

---

(١) راجع بنية الثورات العلمية ص٢٩٢، قصة الحضارة مج٦ جـ٦ ص١٢٦ وما بعدها.

(٢) نفسه ص١٢٩، ١٣٠.

(٣) قصة الصراع ص١٧٧، ١٧٨، قصة الحضارة مج٦ جـ٦ ص١٣١، ١٣٢.

(٤) قصة الصراع ص ١٧٨.

باسمه «إلى القارئ حول فروض هذا الكتاب:

نظرا إلي ما ذاع من سمعة هذه الفروض الجديدة، فإن علماء كثيرين ستصدمهم ولا ريب نظريات هذا الكتاب صدمة قوية.. على أن.. فروض الأستاذ ليست بالضرورة صحيحة، ولا حتى مرجحة.. إن هذه الفروض الجديدة ستتخذ لها مكانا إلى جوار الفروض القديمة التى ليست أكثر منها رجحانا...»(١).

موقف الكنيسة من كوبر نيكوس:

رفضت الكنيسة هذه الآراء الجديدة وقاومتها بشدة.

فقد رفض (مارتن لوثر) هذه النظرية حوالى عام ١٥٣٠ قائلا (إن الناس يستمعون إلى منجم محدث حاول التدليل على أن الأرض تدور، لا السماوات، ولا القبة الزرقاء، ولا الشمس، ولا القمر.. فهذا الأحمق يريد أن يقلب نظام الفلك كله رأسا على عقب، ولكن الكتاب المقدس ينبئنا بأن يشوع(٢) أمر الشمس لا الأرض أن تقف)(٣).

وأما (كالفن) فقد رد بفقرة من المزمور الثالث والتسعين «أيضا تثبت المسكونة لا تتزعزع»(٤) ثم تساءل: «فمن يجرؤ على ترجيح شهادة كوبر نيكوس على شهادة الروح القدس»(٥).

أدانت الكنيسة هذه النظرية وردتها ووصمت صاحبها بأقذع الصفات. بل

---

(١) قصة الحضارة مج٦ جـ٦ ص١٣٢، ١٣٣.

(٢) يقصد لوثر بذلك ما جاء في سفر يشوع الإصحاح العاشر أن يشوع قال (أمام عيون إسرائيل يا شمس دومي على جِبْعون ويا قمر على وادى آيلون. فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه. أليس هذا مكتوبا في سفر ياشر. فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب يوما كاملا) سفر يشوع ١٠: ١٢: ١٣.

(٣) قصة الحضارة مج ٦ جـ٦ ص١٣٠.

(٤) مزمور ٩٣: ١.

(٥) قصة الحضارة مج٦ جـ٦ ص١٣٠، ١٣١.

إن الكنيسة اعتبرتها أشد الأخطار التى توجهها، وعبر عن هذا جيمس وولف سنة ١٥٧٥ م بقوله (ما من هجوم على المسيحية أشد خطرا من القول بضخامة السماوات وعمقها)[١] لقد ترتب عليها أن شك الناس في عقيدة الخلاص المسيحية التى هى أساس هذا الدين المسيحى.

وقد صور ول ديورانت خطورة هذه النظرية على المسيحية بقوله: فلا بد أن الناس حين توقفوا للتأمل في المعانى التى تتضمنها النظرية الجديدة راحوا يتساءلون عن صواب القول بأن خالق هذا الكون الهائل المنظم قد أرسل ابنه ليموت على هذا الكوكب المتوسط الحجم، وبدا أن كل شِعْر المسيحية الجميل «يتصاعد دخانا» تحت لمسة هذا الكاهن البولندى - يقصد كوبر نيكوس «. . . لقد واجه اللاهوت أقوى تحد في تاريخ الدين، ومن ثم كانت الثورة الكوبرنيكية أشد عمقا من حركة الإصلاح البروتستانتى، فقد جعلت الفروق بين العقائد الكاثوليكية والبروتستانتية تبدو تافهة»[٢] وذلك بقياس أن النقد الموجه للمسيحية بناء على نظرية كوبر نيكوس أشد وطئا وأكبر خطرًا.

وينقل ول ديورانت عن أحدهم قوله (وأحس كثير من رجال اللاهوت أن فلك كوبر نيكوس كان واضحا كل الوضوح أنه لا يتفق مع ما جاء في الكتاب المقدس، وأن الكتاب المقدس سوف يفقد قيمته، وأن المسيحية نفسها سوف تتأثر إذا انتشرت آراء كوبر نيكوس.

ماذا يمكن أن يصيب العقيدة المسيحية الأساسية إذا كان الله سبحانه وتعالى - كما يعتقد النصارى - قد اختار كوكب الأرض مقرا دنيويا له[٣]- هذه الأرض التى يريدون اليوم أن يجردوها من مكانتها السامية ومنزلتها الرفيعة، وتوضع

---

(١) نفسه ص١٣٨.

(٢) نفسه ص١٣٨، ١٣٩.

(٣) وذلك على أساس أنهم يعتقدون أن الله نزل من السماء على الأرض ليخلص البشرية من الخطايا وقد بينا عدم صحة هذه العقيدة في رسالتنا للماجستير (الخلاص المسيحى ونظرة الإسلام إليه).

طليقة بين كواكب أكبر منها مرات كثيرة وبين نجوم لا حصر لها)[١].

أصبح الأمر واضحا فقد اعتنق المسيحيون بعض آراء الأقدمين وأثبتوها وأقروها ودللوا عليها بما في كتبهم المقدسة وبما عندهم من عقائد، حتى إذا جاء العلم وأثبت خطأ هذه الآراء وقعوا في مأزق خطير: إما أن ينكروا عقائدهم ويقروا بتحريف كتبهم، أو ينكروا العلم الثابت بالأدلة ويحاربوا أهله حتى لا يتبين زيف معتقداتهم وخطأ كتبهم.

وهناك بعد آخر لا بد من الإشارة إليه وهو أن التناقض بين العلم الصحيح القائم على الأدلة والبراهين وبين الدين إنما ينشأ نتيجة لانحراف البشر عن الدين الحق أو العقيدة الصحيحة.

فالدين المنزل من عند الله لا يتناقض مع صحيح العلم.

لم تستطع الكنيسة أن توقف مسيرة العلم فبعد كوبر نيكوس جاء كبلر وجاليليو[٢] ليؤكدا من جديد صحة نظريته لكن الكنيسة كانت لهما وللنظرية الجديدة بالمرصاد. وسنكتفى هنا بالإشارة إلى جاليليو فقط لما له من أثر على احتدام الصراع.

جـ- جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢ م):

عالم فلك ورياضيات وطبيعة إيطالى، متعدد الاهتمامات العلمية[٣]، كان سباقا إلى الاهتمام بالمنهج العلمى الجديد الذى يعتمد على التجربة في استقاء الحقائق، والتسليم بما ينتهى إليه المنهج الجديد من آراء حتى ولو

(١) قصة الحضارة مج٧ جـ٣ ص٢٧٣.

(٢) كبلر، جوهانز (١٥٧١ - ١٦٣٠) عالم فلك ألمانى التحق بمدرسة تابعة لأحد الأديرة وتنقل بين عدد من المدارس، تعلم الرياضيات والفلك على يد معلم يؤمن بنظرية كوبر نيكوس له عدة كتب منها (خلاصة فلك كوبر نيكوس) أوضح فيه كيف أن قوانينه أيدت وشرحت وأصلحت من نظرية كوبر نيكوس (راجع بنية الثورات العلمية ص٣١٤، يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٩ الطبعة السادسة. دار المعارف سنة ١٩٧٩م، قصة الحضارة مج ٧ ج ٣ ص ٢٥٩ - ٢٦٤).

(٣) بنية الثورات العلمية ص٢٩١.

بدت خلاف المألوف من حقائق اللاهوت المسيحى[١].

اعترف صراحة بإيمانه بنظرية كوبر نيكوس عن مركزية الشمس في محاضرة ألقاها في بيزا الإيطالية عام ١٦٠٤ واخترع في عام ١٦٠٩ أول تليسكوب للأرصاد الفلكية[٢]، وبه كشف أقمار المشترى، ورفض خصومه النظر إليه بحجة أن استخدامه يوقع في الكفر، وأن ما يبدو من خلاله ليس إلا أوهاما يوسوس بها الشيطان الخناس[٣]، واكتشف وجود جبال على سطح القمر، وأن هناك نجوما عديدة لا يراها الإنسان بالعين المجردة[٤].

موقف الكنيسة من جاليليو:

منذ أن صرح جاليليو بأن الشمس مركز الكون، وأعلن إيمانه بنظرية كوبر نيكوس. وهو عرضة لتوجيه الاتهامات إليه من رجال الدين المسيحى.

ففى ٢١ ديسمبر ١٦١٤ م بدأ الهجوم «توماسو كاتشبنى» وهو واعظ دومنيكانى حيث أوضح أن نظرية كوبرنيكوس تتعارض تعارضا تاما لا يقبل الجدل مع الكتاب المقدس. وأرسل معارضون بشكاوى إلى محكمة التفتيش.

وفى ٢٠ مارس ١٦١٥ أودع أحد رجال الدين المسيحى اتهاما رسميا ضد جاليليو في المحكمة فكُتب إلى جاليليو أنه لن يمس بسوء إذا وضع في منشوراته بعض عبارات تشير إلى أن رأى كوبر نيكوس هو مجرد فرضية، لكنه أبى، وقال إنه لن يعدل أو يخفف من كوبر نيكوس[٥].

---

(١) قصة الصراع ص ٢١٤، ٢١٥.

(٢) بنية الثورات العلمية ص ٢٩١، ٢٩٢.

(٣) قصة الصراع ص ٢١٥.

(٤) بنية الثورات العلمية ص٩١، لمزيد من المعلومات عن جاليليو راجع: قصة الحضارة مج ٧ جـ٣ ص٢٦٤ وما بعدها، كراوذر: صلة العلم بالمجتمع ج١ ص٣٢٢ وما بعدها. ترجمة حسن خطاب مكتبة النهضة المصرية.

(٥) قصة الحضارة مج٧ جـ٣ ص٢٧٣، ٢٧٤.

وأضاف في رسالة له إلى «دوقة[1] تسكانيا الكبرى» (إني لا أشعر بأنى مضطر إلى الإيمان بأن الله الذى أمدنا بالإحساس والعقل والفكر قصد بنا أن نضيع فرصة استخدامها والانتفاع بها)[2].

وعلى أثر هذا اتفق البابا بولس الخامس مع رئيس أساقفة بيزا وبللارمن - وقد كان لاهوتيا ملحوظ المكانة في تاريخ عصره - على الانتقام من جاليليو باعتباره ملحدا ضالا، إذ أن آراءه في نظرهم تقوض فكرة الخلاص المسيحى وتثير الشك في اعتقادهم بتجسد المسيح، وتنكر نص الكتاب المقدس على أن الشمس قد وقفت ليوشع[3].

وفى ١٦ فبراير ١٦١٦ م أصدرت محكمة التفتيش توجيهاتها إلى الكاردينال بللارمن بأن يستدعي من يدعى جاليليو وينذره بأن يتخلى عن آرائه المزعومة، وفى حالة امتناعه.. يعلنه أمام كاتب العدل وبعض الشهود بالأمر بالإقلاع عن تدريس آراء كوبر نيكوس، أو الدفاع عنها، بل حتى مناقشتها، فإذا لم يذعن لهذا يودع فى السجن، وأعلن جاليليو امتثاله للأمر[4] كارها[5].

---

(١) الدوق: أعلى مرتبة من مراتب الشرف في النظم القديمة عند الفرنجة. والدوقية: ولاية صغيرة أميرها: دوق، وهو لفظ معرب (راجع: المعجم الوسيط جـ١ ص٣٠٤، المعجم الوجيز ص٢٣٩).

(٢) قصة الحضارة مج٧ جـ٣ ص٢٧٥. عن هذه الرسالة راجع أيضا صلة العلم بالمجتمع ج١ ص٣٣٦، ٣٣٧، د/ كارل ساغان: الكون ص١٤٣ ترجمة نافع أيوب. سلسلة عالم المعرفة العدد ١٧٨.

(٣) يشوع ١٠: ١٣ إن خصوم جاليليو أصروا على أن الكتب المقدسة تؤكد أن الأرض مركز الكون وأن الشمس هى التى تدور حول الأرض. فالمزامير تشبه شروق الشمس بخروج (العروس من خدرها) ١٩: ٥ وسفر الجامعة يقول: (الأرض قائمة إلى الأبد، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق) جامعة ١: ٤: ٥، راجع قصة الصراع ص٢١٦.

(٤) قصة الحضارة مج٧ جـ٣ ص٢٧٥.

(٥) يذكر د/ توفيق الطويل أن هناك من العلماء من أنكر تعهد جاليليو بعدم تلقين النظرية لأحد من الناس. وقيل إن هذا التعهد دسه رجال الكنيسة ليبرروا محاكمة جاليليو لثانى مرة عام ١٦٣٢، ١٦٣٣. لكن هوايت لا يرى هذا الرأى مستندا على وثائقه. راجع قصة الصراع ص٢١٧.

وفى ٥ مارس أصدرت المحكمة قرارها التاريخى وهو كما يلى:

«إن الفكرة التى تقول بأن الشمس تقف بلا حركة وسط الكون فكرة سخيفة وهى من الناحية الفلسفية فكرة زائفة، وهى كذلك هرطقة لا جدال فيها، لأنها تناقض النصوص المقدسة - عندهم والفكرة التى تقول بأن الأرض ليست مركزا للكون بل حتى أن لها دورة يومية زائفة من الناحية الفلسفية، وأنها على الأقل اعتقاد خاطئ»[1].

ثم حرمت لجنة فهرست الكتب نشر أو قراءة أى كتاب يدافع عن النظرية الممنوعة، وحظرت استخدام كتاب كوبر نيكوس حتى يتم تصحيحه[2] أى حتى يتم تصحيح المواضع التى يتحدث فيها المؤلف عن حركة الأرض ومكانها من العالم لا كمجرد فرض بل كحقيقة[3].

وهكذا أصرت الكنيسة على رأيها واعتبرت أن ما يردده جاليليو وما قاله كوبر نيكوس من قبل هراء يجب التصدى له، وضلالات يجب منع نشرها وذيوعها بين الناس.

إن الأمر بالنسبة للمسيحيين مرتبط بعقيدتهم ولذلك فهم يخشون خطرًا يهدد عقائدهم من جراء تلك النظرية الجديدة.

إنهم بنوا عقائدهم التى تكونت من أديان وفلسفات مختلفة على أساس من الآراء العلمية القديمة التى هى عرضة للخطأ فى أى وقت، وذلك كمن يبنى بيته على كثيب من الرمال المتحرك الذى هو عرضة للزوال والفناء فى أى وقت. ولذلك كانت النتيجة أنهم أنكروا ما يؤيده العلم، وأثبتوا ما ينكره العلم بحجة أنه يتنافى مع الكتب المقدسة.

وواصلت الكنيسة سعيها لمنع جاليليو ومؤيديه من أن يذيعوا أو ينشروا شيئا عن نظريتهم الجديدة ولبث جاليليو مقيما فى روما يلقى من !! أء، العام

(١) قصة الحضارة مج٧ جـ٣ ص٢٧٥.

(٢) نفسه ص٢٧٦، راجع أيضا: صلة العلم بالمجتمع ج١ ص٣٣٨، قصة الصراع ص٢١٧.

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٠، ٢١.

عنتا شديدا، ثم عاد إلى فلورنسا، ولزم وعده، وخلا إلى الدروس فى داره، حتى اعتلى عرش البابوية أربان الثامن فخدعته صلته الطيبة به، وعاد جاليليو إلى إعلان آرائه والترويج لها بين الناس، فأثار بهذا خصومه، وأعلن أحد آباء الكنيسة - ردا على جاليليو - أن ثبات الأرض أمر مقدس ثلاثا، وأن التدليل على فناء النفس، وإنكار الله وعدم تجسده، يمكن أن يلقى تسامحًا قبل أن يظفر بهذا التسامح التدليل على أن الأرض تدور[١].

وهذا يدل على مدى التشدد والتعنت من قبل رجال الدين لما يردده جاليليو لدرجة أن الإلحاد يمكن أن ينال عفوا عندهم قبل أن تناله نظرية دوران الأرض!!.

وفى سنة ١٦٣٢ م أصدر كتابه الجديد (المحاورات)[٢] ناقش فيه نظرية بطليموس القديمة ونظرية كوبر نيكوس الجديدة مع عرض للحجج الفلسفية والطبيعية للمنهجين معًا دون أن يحدد أيهما أولى بالقبول[٣]. لكن يبدو أنهم استنتجوا من أسلوب الكتاب الجانب الذى يميل إليه جاليليو فعهد البابا أربان الثامن إلى لجنة بفحص هذا الكتاب[٤] وكان قرارها على النحو التالى:

إن جاليليو لم يتناول نظرية كوبر نيكوس على أنها فرض بل على أنها حقيقة، وأنه حصل على الترخيص بنشر الكتاب نتيجة لتحريفات وتشوهات بارعة[٥].

وفى أغسطس ١٦٣٢ م حظرت المحكمة الاستمرار في بيع كتاب

---

(١) قصة الصراع ص ٢١٧، ٢١٨.

(٢) وذلك بعد أن حصل على ترخيص من الكنيسة وموافقة من البابا بنشره شريطة أن يذكر في الكتاب أن نظرية كوبر نيكوس ما هى إلا مجرد فرض (راجع صلة العلم بالمجتمع جـ١ ص٣٣٨، قصة الحضارة مج٧ ج٣ ص٢٧٧).

(٣) نفسه نفس الصفحة.

(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة ص٢١.

(٥) قصة الحضارة مج٧ جـ٣ ص٢٧٨.

«المحاورات» وأمرت بمصادرة النسخ الباقية.

وفى ٢٣ ديسمبر دعت جاليليو للمثول أمام مندوب المحكمة في روما[١].

ثم استدعى للمثول أمام محكمة التفتيش وزج به في السجن، وفى ٢٢ يونية أصدرت المحكمة قرارها بإدانته بالهرطقة والتمرد والعصيان[٢] لقوله بمذهب كاذب مناف للكتاب المقدس[٣]!! وحكمت عليه بالسجن، وعرضت عليه الغفران شريطة تأدية القسم علنا أمام الجمهور بالتخلى عن آرائه، ورأت للتكفير عن ذنبه أن يتلو مزامير الكفارة السبعة كل يوم طيلة السنوات الثلاثه التالية، وجعلوه يجثو ويركع على ركبتيه ويبرأ من نظرية كوبر نيكوس[٤] ويقول (أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمرى سجين راكع أمام فخامتك والكتاب المقدس أمامى ألمسه بيدى، أرفض وألعن وأحتقر القول الخاطئ الإلحادى بدوران الأرض)[٥].

ويضيف: بقلب مخلص، وإيمان صادق، ألعن وأبغض وأعلن التخلى عن الأخطاء والهرطقة المنسوبة إلى، وبصفة عامة عن أى خطأ أو هرطقة أخرى أخالف فيها.. الكنيسة المقدسة، وأقسم أنى لن أذكر بعد اليوم أى شيء قد يثير مثل هذا الريب حولى، وأنى إذا عرفت أى هرطيق أو أى شخص مشتبه في أنه هرطيق فلا بد أن أبلغ عنه هذه المحكمة[٦].

وأرسل هذا الحكم مع إقلاع جاليليو عن رأيه إلى المعسكرات الدينية في

(١) نفسه نفس الصفحة.
(٢) نفسه ص ٢٧٩.
(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص٢١.
(٤) قصة الحضارة مج٧ جـ٣ ص ٢٧٩، ٢٨٠.
(٥) قصة الصراع ص ٢١٨.
(٦) قيل إن جاليليو حين نهض واقفا ركل الأرض برجله وقال (ومع ذلك فالأرض تدور) لكن هذه الرواية لم تذكر لأول مرة إلا سنة ١٧٦١م (راجع تاريخ الفلسفة الحديثة ص٢١، قصة الحضارة مج٧ جـ٣ ص٢٧٩، ٢٨٠).

أنحاء العالم الأوربى وطلب إليها إعلانه على القساوسة وإذاعته في أساتذة الفلسفة والرياضيات معا، هذا بالإضافة إلى تحريم طبع كتب جاليليو ومن جرى على نهجه، وتحريم طبع كل كتاب يؤيد دوران الأرض[١].

تعقيب:

كل هذا يدل على مدى الصراع الذى دار رحاه في أوربا بين الكنيسة والعلم، والذى كان نتيجة لاكتشاف علمى رأت الكنيسة مخالفته لما تؤمن به وتعتقده، ورأت أيضا مخالفته لما في كتبهم المقدسة. وهذا كله يرجع إلى ما قلناه من أن المسيحية بنت عقائدها التى استقتها من أديان أخرى - على أصول غير صحيحة.

إن تعصب الكنيسة ضد العلم، وإنكارها للنظريات العلمية بدعوى مناقضتها للكتب المقدسة - عندهم - قد يؤخذ دليلا على عدم صحة هذه الكتب وتلك العقائد المسيحية خاصة وأن الكنيسة - فيما بعد - لم تستطع أن تقف أمام انتصار تلك النظرية[٢] التى أقرت ببطلانها ومناقضتها للكتب المقدسة وللمعتقدات المسيحية في وقت من الأوقات.

ولذلك كيف يمكن أن تقبل صحة هذه الكتب المقدسة، وصحة هذه العقائد أمام تردد الكنيسة، وأمام الاستشهاد بنصوص من الكتاب المقدس لبطلان نظرية علمية، ثم العدول عن هذا البطلان؟!!

إن الكنيسة دللت على صحة نظرية بطليموس بعقيدة الخلاص وعقيدة التجسد - تجسد الله في صورة بشرية تعالى الله عن ذلك - وأكدت بطلان نظرية كوبر نيكوس بدعوى أنها تتعارض مع العقائد المسيحية والكتب المقدسة. ثم ما لبثت أن عدلت عن رأيها وتقهقرت أمام صحة هذه النظرية

---

(١) قصة الصراع ص ٢١٩.

(٢) ففى سنة ١٨٣٥ حذفت الكنيسة مؤلفات جاليليو من قائمة الكتب المحظورة، كما حذفت أسماء الكتب التى تعرض لتأييد هذه النظرية. نفسه ص٢٢١، قصة الحضارة مج٧ جـ٣ ص٢٨٢.

التى تقول بدوران الأرض بل وسمحت بنشر الكتب التى تنادى بها إن الأمر يثير الكثير من علامات الاستفهام ويثير الكثير من الشكوك حول صحة ما تؤمن به الكنيسة.

إن الكنيسة هى التى أوقعت نفسها في هذا المحظور، وهذا المأزق الخطير.

ونحب أن ننبه إلى أن هذه المناقشة تفرضها ضرورة البحث، وطبيعة تطور الأحداث، وتسلسل الأمور.

إنهم ربطوا بين صحة كتبهم وعقائدهم المسيحية وبين صحة بعض الآراء العلمية، ثم جاءوا بعد ذلك وتراجعوا عن صحة تلك الآراء. ماذا ستكون النتيجة؟ إن النتيجة لا شك عدم صحة عقائدهم وكتبهم.

إنهم مسئولون عن الوصول إلى هذه النتيجة.

ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه هى الحقيقة لا على أساس هذا الأمر فقط وإنما بناءً على أمور وشهادات كثيرة ذكرنا بعضها في ثنايا هذا البحث.

ولذلك يقول موريس بوكاى (لا يمكن في الحقيقة أن نقبل بأن رسالة إلهية منزلة تنص على واقع غير صحيح)[1] ويقول (وجدت - في سفر التكوين وحده - مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا في عصرنا)[2].

ويقول (إن إنجيل لوقا يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض. إن الكتب المقدسة - في المسيحية - فيها كثير من الأمور المتناقضة... وأمور لا يحتملها التصديق، وأخرى لا تتفق والعلم)[3] وهذا راجع - كما قلت - إلى تحريف البشر وتغييرهم لما أنزل الله.

---

(١) موريس بوكاى: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص١١ ط دار المعارف.

(٢) نفسه ص ١٣.

(٣) نفسه نفس الصفحة.

إذ إن الكتاب السماوى المنزل من عند الله لا يتناقض مع الواقع، ولا يختلف مع الحقائق، ولا يشتمل على أمور غير صحيحة.

ولا ينطبق هذا الوصف إلا على كتاب واحد توافرت له كل دواعى وأسباب الصدق والصحة. ولذلك يقول بوكاى (وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث)(١).

ويقول (هناك فرق جوهرى بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة، ونعنى بذلك فقدان نصوص الوحى الثابت لدى المسيحية في حين أن الإسلام لديه القرآن الذي هو وحى منزل وثابت معا)(٢).

ويقول (صحة القرآن التى لا تقبل الجدل تعطى النص مكانة خاصة ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد.. فلم يتعرض النص القرآنى لأى تحريف من يوم أن أنزل على الرسول ﷺ حتى يومنا هذا)(٣) وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

* * *

(١) نفسه نفس الصفحة.

(٢) نفسه ص١٠.

(٣) نفسه ص١٥١.

سادساً: العلمانية[١]

فى ظل الاتجاهات الفكرية المختلفة التى نشأت في أوربا نتيجة لسيطرة الكنيسة على مقاليد الأمور في العصور الوسطى وما ترتب على ذلك من مواجهتها للعلم ومحاربة أهله. نشأ اتجاه جديد ينادى بالابتعاد عن الدين أو بجعله لا يتدخل في شئون الحياة. في محاولة من العلماء لتجنب الصراع مع الكنيسة، أو للحد من سلطان الكنيسة بجعلها لا تتدخل في أمور الحياة ولا تتدخل فيما يقوله العلم والعلماء، وهذا الاتجاه هو ما عرف بالعلمانية.

معنى العلمانية[٢]:

اختلف الباحثون في تحديد مفهوم العلمانية وذلك على أساس أن الكلمة في أصلها ليست عربية فهى مترجمة عن الإنجليزية والفرنسية.

يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم: العلمانية بفتح العين نسبة غير صحيحة إلى العالم. وقد ينحرف البعض فى فهمها بجعلها نسبة إلى العالم وهو خطأ معذور. ذلك لأن مفهوم العلمانية بنسبتها إلى العالم أى إلى عالم هذه الحياة الدنيا، يعنى توجيه الاهتمام إلى ما يتعلق بالحياة الدنيا وإسقاط الاهتمام بالحياة الآخرة، وبعبارة أشمل وأدق: تعنى إما مجرد «استبعاد» الدين من توجيه شئون الحياة الدنيا فى السياسة والاقتصاد والعلم والأخلاق والتربية. بأن يترك له دائرة الوجدان المحصور فى ساعة العبادة – وهذا هو المفهوم السائد فى

(١) لقد كتب في هذا الموضوع رسائل علمية ومؤلفات كثيرة، وحديثنا عنه في هذا الموضوع من البحث على اعتبار أنه أثر من الآثار المترتبة على سيطرة الكنيسة على الفكر، وعداوتها للعلم وأهله.

(٢) يلاحظ الدكتور على أبو جريشة أن الكلمة لا وجود لها في المعاجم العربية القديمة، وأن وجودها اقتصر على بعض المعاجم الحديثة، وأنها وردت أولا في المعاجم اللبنانية المسيحية في عام (١٨٧٠م) (راجع د/ على أبو جريشة: الاتجاهات الفكرية المعاصرة هامش ص٨٢ الطبعة الأولى دار الوفاء سنة ١٩٨٦م.

أوربا الغربية والبلاد التى ترفع شعار الديمقراطية الرأسمالية - وإما أنها تعنى إسقاط الدين بالكلية وهذا هو المفهوم السائد فى أوربا الشرقية[١].

ويرى د/ يوسف القرضاوى أن العلمانية - بكسر العين[٢] - ترجمة غير دقيقة بل غير صحيحة لكلمة لا صلة لها بلفظ العلم ومشتقاته.

والترجمة الصحيحة للكلمة هى «اللا دينية» أو «الدنيوية» لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب بل بمعنى أخص، وهو ما لا صلة له بالدين، أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد.

ثم يبين سبب الخطأ في الترجمة بقوله:

وإنما ترجمت الكلمة الأجنبية بهذا اللفظ «العلمانية» لأن الذين تولوا الترجمة لم يفهموا من كلمتى «الدين» و «العلم» إلا ما يفهمه الغربى المسيحى منها. والدين والعلم في مفهوم الإنسان الغربى متضادان متعارضان. فما يكون دينيا لا يمكن علميا، وما يمكن علميا لا يكون دينيا، فالعلم والعقل يقعان في مقابل الدين، والعلمانية والعقلانية في الصف المضاد للدين[٣].

وعلى كل حال - كسرت عينها أو فتحت - فإن الكلمة حديثة العهد في لغتنا العربية وهى مترجمة عن اللغات الأوربية[٤] ويتضح معناها من خلال ما ورد في المعاجم ودوائر المعارف الأجنبية.

---

(١) د/ يحيى هاشم: الفكر الإسلامى في مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة ص ٣٩ الطبعة الأولى مطبعة الجبلاوى سنة ١٩٨٦م، حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب ص٧ سلسلة قضايا إسلامية معاصرة تصدرها الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر سنة١٩٨٩م.

(٢) يعلق د/ يوسف القرضاوى في الهامش بقوله (بعضهم ينطقها بفتح العين نسبة إلى «العالم» وشاع ذلك في عدد من المعاجم حيث أخذ بعضها عن بعض، ولو صح ذلك لقيل «العالمانية» وآخرون ينطقونها بكسر عينها وأنا منهم نسبة إلى العلم وهو خطأ من المترجمين) (راجع د/ يوسف القرضاوى: الإسلام والعلمانية وجها لوجه هامش ص٤٢. الطبعة الأولى. مكتبة وهبة سنة ١٩٩٧م.

(٣) نفسه ص ٤٢، ٤٣.

(٤) نفسه ص ٤٥.

تقول دائرة المعارف البريطانية - عن معنى هذه الكلمة في أصلها الإنجليزى - مادة (Secularism):

هى حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها. ذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر، وفى مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ (Secularism) تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية حيث بدا الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية، وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة.

وظل الاتجاه إلى الـ (Secularism) يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة للدين، ومضادة للمسيحية[١].

ويقول قاموس (العالم الجديد) لوبستر شرحاً للمادة نفسها:

١- الروح الدنيوية أو الاتجاهات الدنيوية، ونحو ذلك. وعلى الخصوص: نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض أى شكل من أشكال الإيمان والعبادة.

٢- الاعتقاد بأن الدين والشئون الكنيسية لا دخل لها في شئون الدولة وخاصة التربية العامة.

ويقول معجم أكسفورد شرحاً لكلمة (Secular)

١- دنيوي، أو مادي، ليس دينياً ولا روحياً، مثل التربية اللادينية، الفن أو الموسيقى اللادينية، الحكومة المتناقضة للكنيسة.

٢- الرأى الذى يقول: إنه لا ينبغى أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية

(١) نقلاً عن: سفر الحوالي: العلمانية نشأتها وتطورها ص ٢٢ (رسالة ماجستير من جامعة أم القرى) طبع ونشر مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامي بكلية الشريعة. جامعة أم القرى.الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م.

ويقول (المعجم الدولى الثالث الجديد) مادة (Secularism):

اتجاه في الحياة أو في أى شكل خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب أن لا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعاداً مقصوداً. فهى تعنى مثلاً (السياسة اللادينية البحتة في الحكومة).

وهى نظام اجتماعى في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعى، دون النظر إلى الدين[١].

نشأة العلمانية:

نشأت العلمانية في أوربا نتيجة للظروف التى مرت بها.

قلنا سابقاً إن الكنيسة كانت هى صاحبة السلطة المسيطرة طوال العصور الوسطى في أوربا حتى بدأ الإنسان الأوربى يكشف مجالاً آخر يرى فيه استقلاله عن الكنيسة وهو مجال البحث الطبيعى، وكلما اكتشف قوة جديدة ابتعد عن الكنيسة وسيطرتها، بل واتهم الكنيسة ونال من دينها.. وكان يهدف من وراء ذلك المحافظة على حريته في حركة البحث وفى السلوك بعيداً عن سلطة الكنيسة ورجال الدين فيها[٢].

إن الكنيسة كانت تعطل العلم، وتضع المعوقات والعراقيل أمام العلماء ولذلك رأى العقل الأوربى أن التخلص من الكنيسة والثورة على الدين المسيحى هو الضمان لاستمرار حركة النهضة العلمية الأوربية، ومن هنا نشأت وظهرت العلمانية في أوربا لإبعاد الدين عن جميع مجالات الحياة

(١) نفسه ص ٢٢، ٢٣.

(٢) راجع د/ محمد البهى: الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة ص ١٢، ص١٣ الطبعة الثانية. مكتبة وهبة سنة ١٩٧٨م.

المختلفة. ونحب أن نؤكد هنا أن ما ذكرناه سابقاً من أسباب نقد الكنيسة، وأسباب الصراع بين الدين والعلم إنما يدخل تحت دائرة الأسباب الممهدة لنشأة العلمانية في أوربا، على اعتبار أن حلقات البحث يسلم بعضها لبعض. فالمسيحية نفسها بعقائدها المناقضة للعقل والعلم سببًا من أسباب نشأة العلمانية. وكذا انحراف رجال الدين واستغلالهم للسلطة الدينية في فرض وصايتهم على العقول والقلوب. يضاف إلى ذلك جمود رجال الدين وتعصبهم ضد العلم واضطهادهم للعلماء وما ترتب على ذلك من قرارات الحرمان، ومحاكم التفتيش.

كل هذه أمور كانت ولا شك سبباً في أن يفكر الأوربيون في التخلص من الدين الذى يقف أمام تطلعاتهم الفكرية وأبحاثهم ونظرياتهم العلمية[١].

تعقيب:

مما سبق يتبين لنا أن العلمانية نشأت في أوربا نتيجة أسباب معينة وظروف معينة، ودين معين هو المسيحية. وهذا يعنى اختصاص العلمانية بأوربا وبالمسيحية.

والذين يتحدثون عن العلمانية ويريدون نقلها إلى المجتمعات الإسلامية لا شك أنهم غفلوا أو أغفلوا تلك الحقائق.

فالأمر في الإسلام مختلف تماماً.

فلا يوجد في الإسلام عقائد تناقض العقل أو تعارض الحقائق، إذ إنه يخاطب العقل، ويعتمد عليه في فهم الدين، وعمارة الدنيا، كما أنه - أى الإسلام - يدعو إلى العلم والتفوق فيه والأخذ بأساليبه. بل إنه اعتبر أن التفكير عبادة، وأن طلب العلم كل العلم الذى تحتاج إليه الأمة فريضة، وأن التخلف عن ركب العلم منكر أو جريمة، وأن التفوق في ميادينه النظرية

(١) لقد ذكرنا هذه الأمور وغيرها سابقاً، ولا داعى لإعادة تفصيلها مرة أخرى.

والتطبيقية، المدنية والحربية واجب دينى، وكل وسيلة تؤدى إلى هذا الواجب فاتباعها واجب.

والإسلام لا يرى أى تعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح، كما أنه لا يرى أى تعارض بين حقائق العلم وقواطع الإسلام فلا مجال للصراع بينهما[١].

كما أن الإسلام لا يعرف الكهانة، ولا توجد فيه طبقة كهنوتية، تحتكر الدين، وتتحكم في الضمائر، وتغلق على الناس باب الله إلا عن طريقها، عنها تصدر قرارات الحرمان، أو صكوك الغفران. إنما المرء في الإسلام لا يحتاج إلى واسطة بينه وبين ربه، فهو أقرب إليه من حبل الوريد، وعلماء الدين ليسوا إلا خبراء في اختصاصهم، يرجع إليهم كما يرجع إلى كل ذى علم في علمه[٢] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

كما أنه ليس في الإسلام جمود إذ إنه يدعو إلى الاجتهاد ويعتبره مبدأ أساسيًا من مبادئه[٣].

إن الذين يريدون نقل العلمانية إلى المجتمعات الإسلامية تحت أى مسمى من المسميات غفلوا هذه الحقائق عن الإسلام، كما أنهم غفلوا (أنه لا وجه للشبه بين طبيعة الإسلام وحضارته وبين طبيعة المسيحية وحضارتها الغربية)[٤].

---

(١) الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه ص ٢٩.

(٢) نفسه ص ٣٦.

(٣) وقد ذكر الدكتور يوسف القرضاوى عشرين أصلاً من أصول الإسلام في بيان موقف الإسلام من العلمانية فمن أراد الاستزادة فليراجعها في المرجع المشار إليه سابقاً ص ٢٧-٤١، كما ذكر الدكتور محمد البهى حقائق أخرى يمكن مراجعتها فى: الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة ص ٣٣-٤٤، العلمانية وتطبيقها في الإسلام إيمان ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر ص٤-٢٠، راجع أيضاً محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة ص ٤٩٥ الطبعة الثامنة. دار الشروق سنة ١٩٩٣م.

(٤) راجع د/ محمد عمارة: نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام ص ٣٤، ٣٥ الطبعة الأولى دار الرشاد سنة ١٩٩٧م.

فالعلمانية إذن ليس لها مع الإسلام مكان في وجود الإنسان[١] لأن الإسلام يتعارض كليًّا وجزئيًّا مع العلمانية، ولذلك فإن الدعوة إليها تعنى تعطيل الإسلام عن التطبيق وإقصائه عن الحركة في حياة المسلم.

إن الإسلام قد شكل مجتمعه منذ اليوم الأول على العقيدة - والشريعة - والأخلاق وأن رسوله كان نبيًّا وفى نفس الوقت هو الحاكم ورئيس الدولة وقائدها وقاضيها. إن الإسلام قام على الجمع بين الدين والدولة دون التفريق بينهما[٢].

* * *

(١) الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة ص ١١.

(٢) أنور الجندى: الإسلام والتيارات الوافدة ص ٣٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧م، الإسلام والدعوات الهدامة ص ١٤٨، ١٤٩ الطبعة الأولى. دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٧٤م.

سابعاً: التحول إلى الفكر المادى[١]

بقى أن نشير إلى أن تحول الفكر الأوربى إلى المادية أثر من الآثار التى ترتبت على موقف الكنيسة من العلم.

لقد رأى العقل الأوربى أن ترك الدين - والذى كان ممثلاً في المسيحية - والتحول عنه، والاستقلال عن الكنيسة سوف يتيح له حرية البحث المستقل دون رقابة كهنوتية، ودون وصاية من رجال الدين.

عانى الأوربيون في فترات العصور الوسطى وما بعدها الويلات من الكنيسة، حيث فرضت القيود على الفكر، واضطهدت كل من تسول له نفسه الخروج عليها أو الإتيان بفكر مخالف لها. ونصبت من أجل ذلك محاكم التفتيش لتكون أداة قمع في أيدى رجالها لتأديب وقطع الخارجين عليها.

ولذلك حينما استرد العقل الأوربى حريته كفر بهذا الدين الذى حتم عليه الإيمان بعقائد لا يفهمها، وتحول إلى الاتجاه المقابل الذى لا يؤمن إلا بالمادة، ولا يعتقد إلا في المحسوس، وأصبح لا يرى تفسيراً لحقائق الأشياء إلا التفسير المادى.

الفكر المادى مفهومه وأهم خصائصه:

تطلق المادية على المذهب القائل بأن الظواهر المتعددة للأشياء ترجع إلى أساس واحد (وهو المادة)، ويرى أن العالم مجموعة مكونة من شيء واحد، ويذهب إلى أن المادة أساس كل شئ، وينكر وجود روح قائمة بنفسها قد تتصل بالمادة وقد تنفصل عنها[٢].

---

(١) تفاصيل هذا الموضوع كثيرة، واتجاهاته عديدة، وحديثنا عنه في هذا البحث باعتباره أثراً من آثار سيطرة الكنيسة على الفكر الأوربى في العصور الوسطى وما بعدها بقليل.

(٢) رابوبرت: مبادئ الفلسفة ص١٧٢. ترجمة: أحمد أمين. الطبعة السادسة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مكتبة الخانجى.

فالماديون يرون أن لا شيء غير المادة، وليست الحياة والحركة إلا وظيفة من وظائف المادة أو صفة من صفاتها، حتى إذا عرا المادة الانحلال فلا حياة[١].

ويرى هؤلاء الماديون أن ما نسميه العقل ليس إلا شكلاً من أشكال المادة الدائمة التغير والتنوع، وليست المادة - كما يقولون - كتلة عديمة الحياة لا حراك بها، تأتي إليها الروح وهي منفصلة عنها فتنفخ فيها وتنتج حياة، وإنما القوة ملازمة للمادة ومظهر من مظاهر المادة المتنوعة، والحياة والفكر ليستا إلا صفتين غريزيتين للمادة ونتيجة لامتزاج جزئيات المادة مزجاً معقداً[٢].

يقول رابوبرت (وليس القول بوجود قوة وروح وإله منفصل عن المادة يسبح فوقها يدفعها ويسخرها إلا قولاً خاملاً وهراءً في نظر الماديين، ومن السخف عندهم القول بوجود روح مجردة وقوة خالقة مغايرة للمادة)[٣] وسوف نبين بطلان هذا المذهب بعد قليل. وتكرر القول - على مذهبهم- بأن كل الظواهر النفسية ليست إلا وظيفة لأحد أعضائنا وهو المخ. فالأفكار والإرادات والعواطف تتوقف على قوة المخ وعمله وحجمه، وتركيبه، وعلم النفس إنما هو فرع من علم وظائف الأعضاء يبحث في المخ، وليس الفكر إلا حركة للمادة ينعدم بانعدامها وأعمال العقل مظهر خاص لقوة حية نشأ عن تركيب المخ تركيبًا خاصًا، والإنسان يفكر بواسطة المخ كما يهضم بواسطة المعدة، وليس القول بوجود نفس منفصلة عن الجسم مستقلة عن المادة إلا لغواً - في نظرهم)[٤] والنفس والحياة والفكر والوجدان عندهم ثمرة المادة، وكلها كائنة في كل ذرة من المادة وإنما تظهر إذا تركبت الذرات[٥].

وعلى الإجمال فكل شيء عندهم إما مادة أو مظهر من مظاهر المادة، والمادة لا تُحَدّ ولا تفنى، وقوانينها أبدية لا تتغير، ويقولون بأن هذه المادة لم يخلقها الله ولا الإنسان بل هى قديمة أزلية لا تتغير ولا تفنى وليس في العالم شيء يعتريه الفناء ولا ذرة واحدة وإنما تتغير الأشكال[٦].

---

(١) نفسه ص١٧١.
(٢) نفسه ص ١٧٣.
(٣) نفسه ص ١٧٣، ١٧٤
(٤) نفسه ص ١٧٥
(٥) نفسه ص ١٧٤
(٦) نفسه ص ١٧٨، ١٧٩.

يقول رابوبرت (إن المادية مذهب إلحادى لأنه ينكر وجود شيء غير المادة، فلا يعترف بإله ولا بأرواح ولا بملائكة ولا بشياطين. قال أحد الكتاب الماديين: «**إن الطبيعة تقوم بشئونها ولا شيء فوق الطبيعة، وليست الحوادث التى يسميها بعضهم خوارق للعادة ووراء الطبيعة إلا هراء من القول وخطأ في الملاحظة منشؤها اختلاط في العقل، وإضلال رجال الدين**»[١].

تهافت الفكر المادى:[٢]

ليس لهذا المذهب أى قيمة أو تأثير من الناحية العلمية حيث قرر العلم نفسه بطلان وفساد أقوال الماديين، لقد تهدمت تلك النظرة المادية بفضل العلم الذى أثبت عدم صحة ما يردده الماديون.

ولذلك يقول السير جون إكلس - في تقدمته لكتاب العلم في منظوره الجديد[٣]- يطرح هذا الكتاب فكرة مؤداها أنه خلال القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر تكون لدى علماء الفيزياء والكوزمولوجيا[٤] بشكل

---

(١) نفسه ص ١٧٨، ١٧٩.

(٢) كان من المفترض أن نرجئ الحديث عن هذا الموضوع إلى ما بعد الانتهاء من الحديث عن نشأة الفكر المادي في أوربا في العصر الحديث، وأبرز القائلين به، وأثر الكنيسة في نشأته، لكننا آثرنا المبادرة به هنا حتى لا يكون هناك فاصل بين عرض أفكار هذا الاتجاه، وبين مناقشته، لإظهار بطلان بنيانه، وفساد أسسه، وزيف نتائجه ونظرياته.

(٣) هذا الكتاب صنفه اثنان من الأساتذة المعروفين في أمريكا الشمالية أحدهما متخصص في فلسفة العلم وهو روبرت أغروس، والآخر في الفيزياء النظرية ويرأس كلية العلوم والرياضيات في إحدى الجامعات الكندية وهو جورج ستانسيو، أما الهدف من هذا الكتاب - كما جاء في مقدمة المترجم د/ كمال خلايلي - فهو هدم أركان المادية العلمية، ثم إثبات وجود الله تعالى وبيان الحكمة والغاية من إبداع الكون وخلق الإنسان، وذلك بالاستناد إلى النتائج التى انتهى إليها أقطاب العلماء والباحثين المعاصرين في مجالات الفيزياء وعلم الكونيات، ومبحث الأعصاب، وجراحة الدماغ، وعلم النفس الإنساني. (راجع العلم في منظوره الجديد ص ٧ ترجمة: د/ كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٣٤ سنة ١٩٨٩م، الكويت).

(٤) هو علم الكونيات وهو فرع من علم الفلك يبحث في أصل الكون وبنيته ونواميسه وتطوره (نفسه ص ١٥٠ من تعليقات المترجم).

تدريجى تصور ما للعالم - وهو ما يسميه المؤلفان النظرة القديمة - غلبت عليه بشكل متزايد نزعة مادية... على أن الثورة التى حدثت في علمي الفيزياء والكوزمولوجيا في القرن العشرين قد غيرت شكل هذه الصورة[١].

ثم يقول في نهاية المقدمة (إننا جميعاً نحس بالنفور من أيديولوجية لا ترى الوجود وهى تغرس في النفوس اليأس الدائم، أما جاذبية النظرة الجيدة - فهى - كما جاء في خاتمة الكتاب- تستبدل بهذه القسوة الفظيعة غائية الوجود وخالق الكون، والجمال والثروات الروحية وكرامة الإنسان)[٢].

لقد مر العلم - كما يقول روبرت أغروس - بسلسلة مثيرة من الثورات في الفيزياء، ومبحث الأعصاب، وعلم النفس، وعلم الكونيات.. ليقدم لنا تفسيرًا جديًّا يغاير تفسير الماديين[٣].

ويلاحظ الفيزيائى هنرى مارجينو أن «العقيدة الأساسية للمذهب المادى هى أن الحقيقة كلها تكمن في المادة وهذا رأى كان مقبولاً بعض القبول في آخر القرن الماضى، غير أن أموراً كثيرة حدثت في هذه الأثناء تكذب هذا الرأى».

كما يعلن الفيزيائى فيرنر هايزنبيرغ «أن الفيزياء الذرية المعاصرة قد نأت بالعلم عما كان يتسم به من اتجاه مادى في القرن التاسع عشر»[٤].

يضاف إلى هذا أن المذهب المادى - كما ورد في خاتمة كتاب العلم في منظوره الجديد - ضيّق الأفق إذ إنه ذهب إلى أنه لا سبيل إلى معرفة أى شيء ما خلا المادة وخواصها، وهو يواجه عناءً في التوفيق بين القيم الأخلاقية والجمالية والفكرية والغاية والله[٥].

ولذلك يقول روجر سبرى - موافقاً على أن المادية ضيقة الأفق - الوعى

(١) نفسه ص ١١.
(٢) نفسه ص١٣.
(٣) نفسه ص ١٦.
(٤) نفسه ص ١٦.
(٥) نفسه ص ١٣٣.

وحرية الإرادة والقيم.. أثبت العلم المادى عجزه عن معالجتها حتى بصورة مبدئية لا لمجرد كونها عسيرة المركب فحسب بل لأنها تتعارض تعارضاً مباشراً مع النماذج الأساسية. ولقد اضطر العلم - المادى - إلى التخلي عنها، بل إلى إنكار وجودها، أو إلى القول أنها تقع خارج نطاقه. وهذه العناصر الثلاثة تشكل عند السواد الأعظم من الناس بالطبع، بعض أهم الأشياء في الحياة، وعندما ينكر العلم أهميتها بل وجودها، أو يقول إنها خارج نطاقه، فلا بد للمرء أن يتساءل عن جدوى العلم(١).

ويسهب شرودنجر في كتابه (الطبيعة والإغريق) في بيان أوجه قصور النظرة المادية فيقول (إنى أعجب أشد العجب من النقص الفادح الذى تعانى منه صورة العلم عن العالم الحقيقى المحيط بى.. إن العلم يوفر لنا قدرا من المعلومات الواقعية.. إلا أنه صامت بصورة مرعبة عن كل ما هو في الحق قريب إلى قلوبنا، وما هو في الحق يعنينا، إنه لا يستطيع أن يقول كلمة عن الحمرة والزرقة، والحلاوة والمرارة، والألم الجسدى، واللذة الجسدية، ولا هو يعرف شيئا عن الجمال والقبح، وعن الخير والشر، أو عن الله والأزلية، قد يدعى العلم أحيانا أنه يحل بعض مشكلات هذه المجالات إلا أن حلوله تبلغ حدا من التفاهة والسخف حتى إننا لا نميل إلى أخذها مأخذ الجد)(٢).

إن هذه النظرة المادية وصفت بالجمود وضيق الأفق، وخلوها من معالجة القيم الروحية والأخلاقية والجمالية ولذلك فهى لا تستطيع أن تضع حلولاً لكثير من مشكلات الحياة، ولا تستطيع أن تفسر أعمق اهتمامات الإنسان.

بل إن المادية عاجزة عن أن تقدم لنا مفهومًا كاملا عن المادة وخصائصها، خاصة بعد اكتشاف أن الذرة تتكون من نواة متناهية الصغر يحيط بها حشد

(١) نفسه ص ١٣٤.

(٢) إيروين شرودنجر: الطبيعة والإغريق ص ١٣٢ ترجمة: عزت قرني. راجعه: د/ صقر خفاجة سلسلة الألف كتاب الناشر: دار النهضة العربية سنة: ١٩٦٢م.

من الإلكترونيات، أما الحقائق غير المادية فهى من باب أولى، فالنظرة المادية لا تلقى عليها أى ضوء، فهى لا تستطيع أن تفهم العقل، لأنها تتصوره نتاجا ثانويا للمادة، وقد اتخذت محاولة إرجاع العقل إلى مادة أشكالا متنوعة فى إطار برنامج النظرة المادية، فبعضهم يفترض أن المادة تطورت إلى عقل من تلقاء نفسها، بينما يأمل آخرون أن يقدم مبحث الأعصاب آخر الأمر تفسيرا للعقل بلغة الفيزياء والكيمياء، بل إن هناك بعضا آخر مازال يأخذ بنموذج مادى لكيفية أداء الدماغ لوظائفه[١].

وعلاوة على ذلك فإن المادية - كما جاء فى كتاب العلم فى منظوره الجديد - تستمد الكثير من أضوائها من الخيال ذاهبة إلى أنه إذا كانت المادة وحدها هى الموجودة فكل ما هو واقعى لا بد من أن يكون قابلا للتصوير.. لكن الحقائق الجديدة التى تمثلها نظرية النسبية، وفيزياء الكم[٢]، قد حملت العلم على تجاوز التفكير بالصور، فالذرة كما يعرفها عالم الفيزياء في القرن العشرين قابلة للفهم، ولكنها غير قابلة للتصوير الحرفى، وكذلك شأن المكان رباعى الأبعاد في نظرية النسبة الذى يمكن فهمه لا تصويره[٣].

ولذلك فإن المادية واهنة كل الوهن[٤].

أما قول الماديين بأن المادة أزلية فهو قول أثبت العلم الحديث أيضاً عدم صحته. فبعد نشر النسبية العامة رأينا الفلكى «ويلم دى سيتر» والرياضى «ألكساندر فريدمان» يستنتجان من النظرية الجديدة كل على حدة أن الكون أخذ في التمدد، وسرعان ما ثبت ذلك بالمشاهدة، فخلال العشرينات من هذا

---

(١) العلم في منظوره الجديد ص ١٣٧.

(٢) نظريه فيزيائية حديثة تقول إن عملية امتصاص أو ابتعاث الطاقة لا تتم جملة واحدة بل على مراحل كل منها عبارة عن حزمة من الطاقة تسمى (الكم) تشكل هذه النظرية، ونظرية النسبة لأينشتاين الأساس الذي قام عليه علم الفيزياء الحديث (نفسه ص ١٥٢ من تعليقات المترجم).

(٣) نفسه ص ١٣٢، ١٣٣.

(٤) نفسه ص ١٤٠.

القرن اكتشف الفلكى «إدوين هبل» أثناء تحليله للضوء المنبعث من المجرات البعيدة أن جميع المجرات الممكن رصدها يتباعد بعضها عن بعض، وكان هذا هو أول مفتاح لأسرار الكون في العلم الحديث، فإذا كانت المجرات تتباعد الآن بعضها عن بعض فلا بد إذن من أنها كانت في الماضى السحيق متحدة، مما يدل على أن الكون له بداية.

ثم جاءت إشارة ثانية من مجال الفيزياء النووية. فلقد كان كيمائيو القرن التاسع عشر يعرفون أن الشمس لا يمكن أن تحرق وقودا تقليديا، فالاحتراق الكيميائى العادى لم يكن يصلح تفسيراً لطاقة الشمس، إذ لو كانت كتلة الشمس كلها فحما لأحرقت نفسها فى غضون ثلاثمائة عام وظلت الشمس لغزا إلى حين اكتشاف الطاقة النووية فى السنوات الأولى من القرن العشرين وأخيرا تمكن الفيزيائيان «هانز بيته» و «كارل فون فايتزساكر» فى عام ١٩٣٨م من تقديم تفسير كامل لكيفية إنتاج الشمس للطاقة من خلال تحول العناصر النووية، ففى قلب الشمس يتحول الهيدروجين إلى هليوم، منتجا الطاقة والضوء، وعلى مدى ملايين السنين كانت العمليات التى تتم داخل نجم تكون شيئاً فشيئاً لا الهليوم فحسب، بل جميع العناصر الأثقل: الكربون والأوكسجين، والسليكون والحديد، وسائر العناصر. وكان معنى ذلك أنه إذا كانت كل العناصر الثقيلة فى الكون قد تكونت من الهيدروجين فى قلب النجوم فلا بد إذن من أن الكون كله تقريباً كان مركبا فى البداية من الهيدروجين. وهذا يدل مرة أخرى على أن للكون بداية[١].

وأخيرا تقدم الفيزيائى «جورج غاموف» فى عام ١٩٤٨ بعد أن جمع الأدلة المستمدة من تباعد المجرات ومن دورة حياة النجوم برأى مفاده أن الكون نفسه نشأ من تمدد بدئى للمادة أطلق عليه اسم «الانفجار العظيم». ويفترض أن

---

(١) نفسه ص ٦١.

كرة النيران فائقة الحرارة قد تمددت بسرعة كالانفجار ثم بردت. وباستخدام الفيزياء النووية بين «غاموف» كيف أن الجسيمات دون الذرية التى كانت موجودة فى أسبق المراحل أنتجت بتأثير درجات الحرارة والضغوط اللاحقة والتبريد لا بد من تشتت وهج خافت من الإشعاع الأساسى بشكل منتظم فى جميع أرجاء الكون.

وظل تنبؤ «غاموف» معلقا طوال عدة أعوام. ثم اكتشف «أرنو بنزياس» و«روبرت ويلسون» فى عام ١٩٦٥ بمحض الصدفة، وباستخدام جهاز ضخم لالتقاط الموجات الصغرى إشعاعا ضعيفا منبعثًا من الفضاء. وبعد أن قاس «بنزياس» و «ويلسون» هذا الإشعاع بدقة لم يسبق لها مثيل وجدا أنه يقرب من ٣,٥ درجة فوق الصفر المطلق، ولم يكن الإشعاع أشد كثافة فى اتجاه الشمس، أو فى اتجاه درب التبانة، ولذا لا يمكن أن تكون المجموعة الشمسية أو المجرة مصدر الإشعاع. فلم يبق إلا تفسير واحد وهو أنه بقية من الإشعاع الأصلى الناتج من «الانفجار العظيم» وهذا الدليل القائم على المعاينة أكد نظرية الانفجار العظيم.

فعالمنا إذن تولد فى أعقاب تمدد هائل فى المادة. ويشير حجم التمدد ومعدل سرعته الحاليان إلى أن الكون بدأ منذ ما يتراوح ما بين ١٢ و ٢٠ مليار سنة. وفى جزء من السكستليون من الثانية بعد البداية كانت كل المادة الموجودة فى الكون معبأة فى مساحة أصغر كثيرا من الحيز الذى يشغله بروتون واحد.. وكانت الكثافة فى تلك المرحلة تهول الخيال: تصور أن الكواكب والنجوم والمجرات بكاملها، وكل المادة والطاقة فى الكون كانت جميعها محتواة فى حيز لا يكاد حجمه يعادل شيئاً. وفى لحظة من الصفر من بداية الزمن كانت الكثافة غير متناهية دون حدوث أى تمدد فى المكان على الإطلاق. وكانت تلك اللحظة لحظة بداية المكان والزمان والمادة.

وينبغى ألا نتصور أن الانفجار العظيم أحدث تمددًا فى المادة فى مكان

قائم بالفعل فالانفجار العظيم هو نفسه تمدد المكان. وهذا يمكن أن يفهمه العقل[١].

وهكذا أكد العلم بالحجج وبالأدلة أن الكون له بداية، مبينا فساد وبطلان قول الماديين بأزلية المادة بطلانا تاما.

وقد ساق أستاذنا الدكتور يحيى هاشم كثيرا من الأدلة العلمية - معتمداً في ذلك على قوانين العلم الحديث - التي تثبت حدوث العالم وتثبت أيضا أنه يفنى. فلقد قرر العلم الحديث أن الكون متناه حجما، وأنه متناه زمنيا، فهو متناه في المستقبل، ومتناه من جهة الماضي[٢].

وما دام الكون له بداية فلا بد أن يكون له مبدئ أبدأه خالق وخلقه وصوره وذلك قول الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وهذه النتيجة أثبتها العلم الحديث وتوصل إليها علماء الفلك والفيزياء والرياضيات وغيرهم.

يقول إدوارد لوثر كسيل - وهو عالم أمريكى في علم الحيوان - (وهكذا أثبتت البحوث العلمية - دون قصد - أن لهذا الكون بداية فأثبتت تلقائيا وجود الإله، كل شيء ذى بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته، ولا بد أن يحتاج إلى المحرك الأول - الخالق الإله)[٣].

وهى نفس النتيجة التى توصل إليها مؤلفا كتاب «العلم في منظوره الجديد» حيث قالا: (أما النظرة العلمية الجديدة فترى أن الكون بمجموعه - بما في

---

(١) نفسه ص ٦١، ٦٢.

(٢) د/ يحيى هاشم حسن فرغل: الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص ١٤٧ - ١٥٦. دار المعارف سنة ١٩٨٤ م.

(٣) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى ص٥٥ تعريب: ظفر الإسلام خان. مراجعة وتحقيق: د/ عبد الصبور شاهين. الطبعة التاسعة سنة ١٩٨٥ م. مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية.

ذلك المادة والطاقة والمكان والزمان - حدث ووقع في وقت واحد، وكانت له بداية محددة، ولكن لابد من أن شيئا ما كان موجودًا على الدوام، لأنه إذا لم يوجد أى شيء من قبل على الإطلاق فلا شيء يمكن أن يوجد الآن. فالعدم لا ينتج إلا العدم، والكون المادى لا يمكن أن يكون ذلك الشيء الذى كان موجودا على الدوام لأنه كان للمادة بداية.. ومعنى ذلك أن أى شيء وجد دائما هو شيء غير مادى.. ويبدو أن الحقيقة غير المادية الوحيدة هى العقل. فإذا كان العقل هو الشيء الذى وجد دائما فلابد من أن تكون المادة من خلق عقل أزلى الوجود. وهذا يشير إلى وجود كائن عاقل وأزلى خلق كل الأشياء وهو الله)[١].

وهكذا أثبت العلم الحديث تهافت الفكر المادى، وبطل القول بأزلية الكون بطلانا تاما. وبذلك تكون النظرية المادية من وجهة نظر العلم قد سقطت. فلقد تبين أن هناك قوة أخرى وراء المادة وهى القوة الخالقة المدبرة التى أبدعت الكون وخلقته[٢].

نشاة الاتجاه المادى في العصر الحديث:

الذين يؤرخون للفكر المادى يذكرون أن التاريخ القديم شهد أناسا كانوا يؤمنون بالفكر المادى ولقد أشار القرآن الكريم إلى قوم كانوا يؤمنون بالدهر ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

أما في العصور الحديثة فقد انتعشت المادية - كما يقول رابوبرت -

(١) العلم في منظوره الجديد ص ٦٤، ٦٥.

(٢) راجع د/ محمود عثمان: الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ص ٥٠٧، أنور الجندى: الإسلام والتيارات الوافدة ص ١٢، ١٣، الإسلام والدعوات الهدامة ص ١٣١.

بفضل توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩)[١].

ولذلك يصفه يوسف كرم (بأنه أول الماديين المحدثين)[٢].

ووصف فلسفته بقوله (أما فلسفته فما هى إلا المادية بكل سذاجتها كما عرفناها من عهد ديمقريطس وأبيقور)[٣].

قال هوبز: (يتألف الكون من مجموعة من الأجسام، فكل ما في الكون جسم ولا شيء حقيقى فيه لا يكون جسما، ولا يمكن لشيء أن يسمى جسما إلا إذا كان جزءا من مجموعة الأجسام كلها أعنى الكون)[٤].

لقد أرجع إلى الحس كل أفعالنا العقلية، وقال: إن كل علم فهو آت من الحس[٥].

ثم انتقل مذهب المادية من إنجلترا إلى فرنسا فظهر دى لامترى (١٧٠٩-١٧٥١) - الذى تخصص في وظائف الأعضاء - كان ماديا يعد الإنسان آلة من الآلات وأن النفس وظيفة المخ[٦].

وظهر هلفسيوس (١٧١٥-١٧٧١) ودعا إلى المادية أيضا.

ودولباك (١٧٢٣ - ١٧٨٩) الذى ذهب إلى أن المادة متحركة بذاتها وأن كل شيء يفسر بالمادة[٧].

وجاء كابانى (١٧٥٧ - ١٨٠٨) فأرجع جميع الظواهر النفسية إلى العوامل المادية: عوامل البيئة والغذاء ومزاج الجسم، وله عبارة مشهورة هى

---

(١) مبادئ الفلسفة ص ١٨١.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٥١

(٣) نفسه ص ٥٧.

(٤) د/ إمام عبد الفتاح إمام: توماس هوبز فيلسوف العقلانية ص ١٠٥ دار الثقافة للنشر ١٩٨٥.

(٥) راجع تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٥٣، د/ نازلى إسماعيل: الفلسفة الحديثة رؤية جديدة ص٢٠٨.

(٦) راجع مبادئ الفلسفة ص ٢٦٩، تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٩٢.

(٧) نفسه ص ١٩٢.

قوله: إن الدماغ يفكر كما تهضم المعدة، كما تفرز الكبد الصفراء [١].

أما في ألمانيا فنجد فويزباخ (١٨٠٤ - ١٨٨٢). وموليشط (١٨٢٢ - ١٨٩٣) وكارل فوجت (١٨١٧ - ١٨٩٨) الذى كان ماديا محضا وقال: الفكر بالإضافة إلى الدماغ كالصفراء بالإضافة إلى الكبد ثم جاء بوخنز (١٨٢٤ - ١٨٩٩) فتأثر بتعاليم موليشط حتى صار اللسان القوى المبين لمذهب الماديين العصريين وله كتاب (القوة والمادة) وقد نقل إلى العربية[٢].

ثم جاء من بعدهم إنجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) وكارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) الذى أذاع المذهب المادى وروج له بصورة كبيرة .

ثم ظهرت المادية وانتشرت في أوربا بصور واتجاهات مختلفة، وتسمت بأسماء متعددة. وهى كلها تتفق غالبا في نظرتها إلى المادة باعتبار أنها أصل الوجود.

وهروب بعض هذه المذاهب من التسمى باسم المادية منشؤه[٣] كما يقول الأستاذ جون سومرفيل: (إن مجرد تسمية إحدى الفلسفات لنفسها «بالمادية» يعتبر عادة في نطاق حدودنا الثقافية أمرا يدعونا إلى النفور منها، وقفل الأبواب دونها، و.. أن كلمة (مادية) تستخدم في العادة في سياق الاتهام لا من أجل التصنيف فقط)

ثم يقول (لهذا فهم يميلون إلى إطلاق أسماء «التجريبية» و«الطبيعية» و«الإنسانية» و«الواقعية» وما شابه ذلك، على فلسفات كان من الأدق أن تسمى «مادية»)[٤].

---

(١) نفسه ص ١٩٣.

(٢) نفسه ص ٤٠٠، راجع أيضا مبادئ الفلسفة ص١٧٥.

(٣) أستاذنا الدكتور / يحيى هاشم: مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم ص١١. مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٨٠م، الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص٥.

(٤) فلسفة القرن العشرين ص٢٥٨، ٢٥٩ (مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة) نشرها داجوبرت د. رونز. ترجمة: عثمان نوية. راجعه: د/ زكى نجيب محمود. سلسلة الألف كتاب الناشر: مؤسسة سجل العرب سنة ١٩٦٣م.

والماركسية لم تختص باسم الفلسفة المادية المعاصرة إلا أن[1] (المفكرين السوفيت يحذون حذو ماركس وإنجلز في مقت أى تحايل لتفادى استخدام كلمة «مادية»... فأطلقوا عليها [بجرأة] كلمة «المادية»)[2].

وقد علق (بوشنسكى) على هذه المذاهب المادية بقوله: إن الجوانب السلبية فيها أظهر وأعظم وهى كما يلى:

١- أن كل هذه المذاهب التى ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، والقرن العشرين ترجع بشكل أو بآخر إلى موقف فلسفى كانت الحياة العقلية الأوربية قد تركته خلف ظهرها منذ زمن بعيد، وهى من هذه الجهة تمثل ردة إلى الخلف، ورجعة إلى الوراء من الوجهة الفلسفية.

٢- هذه المذاهب تتميز بضعف كبير في بنيانها النظرى.

٣- ولكن الأهم من هذا كله أن كل هؤلاء يقفون حيارى لا يكادون يبينون بشأن كبريات مشكلات الإنسان وهى المشكلات التى اهتم بها الفكر الأوربى في القرن العشرين الميلادى أعظم اهتمام وخاصة فيما يتعلق بالأخلاق، والدين، والألم، والعذاب.

هذه المذاهب بسبب اتجاهها الرجعى، وبسبب ضعفها ووهنها النظرى وبسبب عدم اكتراثها بكبريات مشاكل المصير الإنسانى تمثل أقل ما قدمه الفكر الغربى الأخير من حيث القيمة.

وبصفة عامة فإن فلسفة الغرب في منتصف القرن العشرين الميلادى قد تجاوزت في مجموعها ليس قضايا هؤلاء الفلاسفة الماديين فحسب، بل وكذلك مشكلاتهم[3].

---

(١) الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص٦.

(٢) فلسفة القرن العشرين ص٢٥٩.

(٣) أ.م. بوشنسكى: الفلسفة المعاصرة في أوربا ص١٢٠، ١٢١ ترجمة: د/ عزت قرنى. سلسلة عالم المعرفة العدد ١٦٥ سنة ١٩٩٢م الكويت.

أثر الكنيسة في ظهور الاتجاه المادى:

لا يستطيع أحد أن ينكر أن الكنيسة لها دور - لم تقصده - فى ظهور هذا الاتجاه. فقد جنت على الفكر بأن قيدته فى محيطها، وأسرته بحيث لا يدور إلا فى فلكها، ولذلك فإن العقل الأوربى حين أتيح له أن يأخذ حريته، ويستقل عن الكنيسة لم يجد إلا الاتجاه المقابل للجمود الفكرى - القائم على أساس من الإيمان بمبادئ وعقائد تناقض العقل، ولا يعرف أحد أسرارها ولا كنهها.

كان الاتجاه المقابل هو الإيمان بالمحسوس وبالمادة، وطرح الدين جانبا، والكفر بمبادئه وبالغيبيات والعقائد التى يدعو إليها.

كان رد الفعل قويا وعنيفا أطاح بكل ما هو مقدس، وانطلق الأوربى إلى العلم المادى الذى لا يرى فى الوجود إلا المادة، ولا يرى تفسيرا لشئون الحياة وأمورها إلا التفسير المادي.

يقول د/ أحمد الشاعر (كان الفكر المادى إذن: رد فعل مضاد لموقف الكنيسة، وكان لتشددها واضطهادها للعلم والعلماء، والفلاسفة والمفكرين أثره الفعال في «الثورة المادية» العارمة التى اجتاحت أوربا ضد الدين)[١].

ويقول د/ محمود عثمان (خلعت الفلسفة نير الكنيسة الذى قضى عليها..وعادت إلى المذاهب الفلسفية في أصولها الأولى، وأعادت إلى الأذهان المذاهب المادية القديمة وناصرت بها الإلحاد)[٢].

إن الظروف التى نشأت في ظلها أو بسببها الاتجاهات والمذاهب المادية هى أنها كانت رد فعل إزاء الفلسفة المسيحية التى كانت سائدة في العصور الوسطى.. هذه الفلسفة وصلت إلى حالة من الجمود والتحجر العقلى

---

(١) د/ أحمد الشاعر: الإسلام والفكر المادى ص١٧. الطبعة الأولى. مطبعة الحضارة العربية ١٩٧٦م.

(٢) الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ص٤٧.

والتخبط الفكرى حدث بعلماء العصر إلى الإعراض عنها، وإرساء أسس العلوم الطبيعية على العقل والمشاهدة الحسية والتجارب العلمية[١].

ولذلك قال مؤلفا كتاب (العلم في منظوره الجديد) إذا كانت المادية واهنة كل هذا الوهن من حيث الرحابة والوحدة والضياء، فكيف بدت هذه النظرة إلى العالم معقولة حتى كمنهجية لبعض المفكرين؟

الجواب على ذلك: أنهم كانوا يكافحون الفلسفة المسيحية السائدة في عصرهم... لقد هيمنت مذاهب كبار اللاهوتين في العصور الوسطى العقيمة على المدارس والمعاهد في أواخر عصر النهضة.

وكان واضحا أنه لا بد من صوغ نموذج جديد للعلم، وكان ينبغى لهذا النموذج الجديد، على عكس الفلسفة المسيحية المتداعية التى كانت فيها الغيبيات والخوارق تبدو طاغية على كل شيء، أن يعود إلى الأشياء الملموسة والحقيقة التى لا تقبل الجدل، إلى عالم المادة الفيزيائى.

وهذا التحول الفكرى في تصور العالم عن العصور الوسطى إلى عصر النهضة يمكن أن يوصف بكثير من العمومية بأنه تحول عن الروحانيات إلى الماديات.

وكان التحول في أول الأمر يبدو أكثر تشديدا على عالم المادة منه رفضا لعالم الروح[٢].

هذه المادية إذن كانت وليدة الظروف التى فرضتها المسيحية على العقول. والعجيب أن الثورة المادية لم تقف عند حد الدين المتمثل في الكنيسة ورجالها، بل امتدت إلى محاربة الدين بجملته، والأديان بعمومها حقة كانت أو باطلة.

---

(١) من مقدمة د/ كمال خلايلى (كتاب العلم في منظوره الجديد ص٨).

(٢) نفسه ص١٤٠.

وما أكثر السفهاء الذين جرفتهم تلك الثورة رغم تباين البيئات وتباين حقائق الدين هنا وهناك(١).

ولذلك يقول أستاذنا الدكتور محمد البهى «**لو ورث الفكر الأوربى الروحية الإسلامية أى الروحية التى جاءت بها رسالة الله إلى رسوله محمد ﷺ** لما ظهر في اتجاهات هذا الفكر ذلك الشذوذ، ولا هذه المبالغة في الركون إلى المادة وحدها: في السعى إليها واستهدافها»(٢).

والله أعلم

* * *

(١) الإسلام والفكر المادى ص١٧.

(٢) د/ محمد البهى: غيوم تحجب الإسلام ص٢١ الطبعة الثانية. مكتبة وهبة. سنة ١٩٧٩م.

المصادر والمراجع

أهم مراجع البحث

* القرآن الكريم.

* الكتاب المقدس.

أسد (محمد)

* الإسلام على مفترق الطرق. ترجمة: عمر فروخ. سلسلة صوت الحق.

إسماعيل (د/ نازلى)

* الفلسفة الحديثة. رؤية جديدة مكتبة الحرية الحديثة. سنة ١٩٧٩ م القاهرة.

اغروس (روبرت)، ستانسيو (جورج).

* العلم فى منظوره الجديد. ترجمة: د/ كمال خلايلى. سلسلة عالم المعرفة العدد ١٣٤ سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م الكويت.

إمام (د/ إمام عبد الفتاح)

* توماس هوبز فيلسوف العقلانية. الطبعة الأولى. دار الثقافة للنشر والتوزيع سنة ١٩٨٥ م القاهرة.

امين (د/ عثمان)

* الفلسفة الرواقية. الطبعة الثالثة. مكتبة الأنجلو المصرية. سنة ١٩٧١ م القاهرة.

ايبرنس (د/ هارى)

* مصلح فى المنفى (جون كلفن) ترجمة: وليم وهبة بباوى. الطبعة الأولى دار الثقافة سنة ١٩٨٢ م القاهرة.

باردوى (دانيل)

* الرجل المهذب (مجموعة محاضرات عن الأخلاق) ضمن كتاب من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث. ترجمة: د/ محمد مندور. الطبعة الأولى. لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٤ م القاهرة.

بدوى (د/ عبد الرحمن)

* فلسفة العصور الوسطى. الطبعة الثالثة. وكالة المطبوعات. الكويت، دار القلم بيروت سنة ١٩٧٩م.

البهى (د/ محمد)

* الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة. الطبعة الثانية مكتبة وهبة سنة ١٣٩٨م، سنة ١٩٧٨م القاهرة.

* العلمانية وتطبيقها فى الإسلام إيمان ببعض الكتاب.. وكفر بالبعض الآخر. الطبعة الأولى. مكتبة وهبة سنة ١٤٠٠هـ، سنة ١٩٨٠م القاهرة.

* غيوم تحجب الإسلام. الطبعة الثانية. مكتبة وهبة. سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م القاهرة.

بوشنسكى (ا. م)

* الفلسفة المعاصرة فى أوربا. ترجمة د/ عزت قرنى. سلسلة عالم المعرفة العدد ١٦٥ سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م الكويت.

بوكاى (موريس)

* دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة. دار المعارف سنة ١٩٧٨م القاهرة.

(ابو جريشة _ د/ على)

* الاتجاهات الفكرية المعاصرة. الطبعة الأولى. دار الوفاء للطباعة والنشر ١٤٠٧هـ سنة ١٩٨٦م القاهرة.

جنيبير (شارل)

* المسيحية نشأتها وتطورها. ترجمة: د/ عبد الحليم محمود. المكتبة العصرية - بيروت.

الحوالى (سفر عبد الرحمن)

* العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة. الطبعة الأولى. جامعة أم القرى. مركز البحث العلمى وإحياء التراث سنة ١٤٠٢هـ سنة ١٩٨٢م السعودية.

الحويرى (د/ محمود محمد)

* رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية. دار المعارف سنة ١٩٨١م القاهرة.

خان (وحيد الدين)

* الإسلام يتحدى. ترجمة: ظفر الإسلام خان. مراجعة: د/ عبد الصبور شاهين. الطبعة التاسعة. مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م بيروت.

الخضرى (د/ حنا جرجس)

* جون كلفن. دراسة تاريخية عقائدية. الطبعة الأولى. دار الثقافة سنة ١٩٨٩م القاهرة.

* المصلح مارتن لوثر حياته وتعاليمه. الطبعة الأولى. دار الثقافة سنة ١٩٨٣م القاهرة.

دويدار (د/ بركات عبد الفتاح)

* الوحدانية مع دراسة الأديان والفرق. مطبعة السعادة. الناشر: مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٧م القاهرة.

ديورانت (ول وايريل)

* قصة الحضارة. المجلد الثالث (قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية) الجزء الثالث. ترجمة: محمد بدران. الطبعة الثالثة. لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٧٣م القاهرة.

* قصة الحضارة. المجلد السابع (بداية عصر العقل). الجزء الثالث. ترجمة: محمد على أبو درة مراجعة: على أدهم. لجنة التأليف والترجمة والنشر.

ديورانت (ول)

* قصة الحضارة. المجلد الرابع (عصر الإيمان) الجزء الأول. ترجمة: محمد بدران. الطبعة الثالثة. لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٧٣م.

* قصة الحضارة. المجلد الرابع. الجزء الخامس. ترجمة: محمد بدران سنة ١٩٧٦م.

* قصة الحضارة. المجلد الرابع. الجزء السادس. ترجمة: محمد بدران الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦م.

* قصة الحضارة. المجلد السادس (الإصلاح الدينى). الجزء الأول. ترجمة: د/ عبد الحميد يونس سنة ١٩٦٨م.

* قصة الحضارة. المجلد السادس. الجزء الثالث. ترجمة: د/ عبد الحميد يونس ١٩٦٩م.

* قصة الحضارة. المجلد السادس. الجزء السادس. ترجمة: فؤاد أندراوس. مراجعة: على أدهم ١٩٧٤م.

رابورت (ا. س)

* مبادئ الفلسفة. ترجمة: أحمد أمين. الطبعة السادسة. لجنة التأليف والترجمة والنشر.مكتبة الخانجي القاهرة.

ريشنباخ (هانز)

* نشأة الفلسفة العلمية. ترجمة: د/ فؤاد زكريا. الطبعة الثانية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة ١٩٧٩م بيروت.

الزغبى (د/ فتحى محمد)

* غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام. الطبعة الأولى. مطبعة غباشى سنة ١٩٨٨م.

زكى (د/ عزت)

* تاريخ المسيحية (المسيحية فى عصر الإصلاح). دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية سنة ١٩٨٠م القاهرة.

ابو زهرة (الإمام محمد)

* محاضرات فى النصرانية. الطبعة الخامسة. دار الفكر العربى. سنة ١٩٧٧م القاهرة.

ساغان (د/ كارل)

* الكون. ترجمة: نافع أيوب لبّس. مراجعة: محمد كامل عارف. سلسلة عالم المعرفة. العدد ١٧٨ سنة ١٩٩٣م الكويت.

سباين (جورج)

* تطور الفكر السياسى. الكتاب الثانى. ترجمة: حسن جلال العروسى. مراجعة: د/ محمد فتح الله الخطيب. دار المعارف سنة ١٩٦٤م القاهرة.

سعيد (حبيب)

* تاريخ المسيحية (فجر المسيحية) دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية. سنة ١٩٧٨م القاهرة.

سومرفيل (جون)

* مقال عن البراجماتية الأمريكية (ضمن كتاب فلسفة القرن العشرين) مجموعة مقالات فى المذاهب الفلسفية المعاصرة، نشرها: داجوبرت رونز. ترجمة: عثمان نوية، مراجعة: د/ زكى نجيب محمود، سلسلة الألف كتاب. الناشر مؤسسة سجل العرب سنة ١٩٦٢م.

الشاعر (د/ أحمد عبد الحميد)

* الإسلام والفكر المادى. الطبعة الأولى. مطبعة الحضارة العربية. سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م القاهرة.

شرودنجر (إيروين)

* الطبيعة والإغريق. ترجمة: عزت قرنى. مراجعة: د/ صقر خفاجة. سلسلة الألف كتاب. دار النهضة العربية سنة ١٩٦٢م القاهرة.

شكرى (د/ محمد فؤاد)، انيس (د/ محمد)

* أوربا فى العصور الحديثة. الجزء الأول. الطبعة الثانية. مكتبة الأنجلو المصرية. سنة ١٩٦١م القاهرة.

شلبى (د/ احمد)

* المسيحية (سلسلة مقارنة الأديان) الطبعة السادسة. مكتبة النهضة المصرية. سنة ١٩٧٨م القاهرة.

الشناوى (د/ عبد العزيز محمد)

* أوربا فى مطلع العصور الحديثة. الطبعة الرابعة. مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٢م القاهرة.

الشهرستانى (محمد بن عبد الكريم)

* الملل والنحل. تحقيق: محمد سيد كيلانى. مطبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٩٦هـ - سنة ١٩٧٦م القاهرة.

الطويل (د/ توفيق)

* أسس الفلسفة. الطبعة الخامسة. دار النهضة المصرية. سنة ١٩٦٧م القاهرة.

قصة الصراع بين الدين والفلسفة. الطبعة الثالثة. دار النهضة المصرية. سنة ١٩٧٩ م القاهرة.

مدخل لدراسة تاريخ الفلسفة (ضمن كتاب العرب والعلم فى عصر الإسلام الذهبى ودراسات أخرى)، الطبعة الأولى. دار النهضة العربية سنة ١٩٦٨م القاهرة.

عاشور (د/ سعيد عبد الفتاح)

أوربا العصور الوسطى. الجزء الأول. التاريخ السياسى. الطبعة السادسة.مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٨٣م القاهرة ،

عبده (الإمام الشيخ محمد)

الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية. الطبعة الثالثة. دار الحداثة للطباعة والنشر. سنة ١٩٨٨م بيروت.

عبيد (د / إسحاق)

الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية. دار المعارف سنة ١٩٧٢م القاهرة.

محاكم التفتيش نشأتها ونشاطها. الطبعة الأولى. دار المعارف. سنة ١٩٧٨ م القاهرة.

عثمان (د / محمود)

الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه. الطبعة الأولى. مكتبة الأنجلو المصرية. سنة ١٩٧٧م القاهرة.

العقاد (عباس محمود)

عقائد المفكرين فى القرن العشرين. دار المعارف. سنة ١٩٨٤م القاهرة.

عمارة (د/ محمد)

نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام. الطبعة الثانية. دار الرشاد. سنة ١٩٩٧م. القاهرة.

غلاب (د/ محمد)

الفلسفة الإغريقية. الجزء الثانى. الطبعة الثانية. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.

الغمراوى (د/ على)

مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط. الطبعة الثانية. مكتبة سعيد رأفت. سنة ١٩٧٧ م القاهرة.

فارنتن (بنيامين)

العلم الإغريقي. ترجمة: أحمد شكرى سالم. مراجعة: حسين كامل أبو الليف سلسلة الألف كتاب. مكتبة النهضة المصرية. سنة ١٩٥٨م القاهرة.

فراج (عبده)

معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى. الطبعة الأولى. مكتبة الأنجلو المصرية. سنة ١٢٨٩هـ، سنة ١٩٦٩م القاهرة .

فرغل (د/ يحيى هاشم حسن)

الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة. الطبعة الأولى. دار المعارف سنة ١٩٨٤م القاهرة.

حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب. (سلسلة قضايا إسلامية معاصرة) تصدرها اللجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف. سنة ١٩٨٩م القاهرة.

الفكر الإسلامى فى مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة .الطبعة الأولى مطبعة الجبلاوى . ١٤٠٦هـ سنة ١٩٨٦م القاهرة .

فى مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم (سلسلة مجمع البحوث الإسلامية) السنة الحادية عشرة. الكتاب الأول سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠م القاهرة .

فشر (هربرت)

أصول التاريخ الأوربى الحديث. ترجمة: د/ زينب عصمت راشد، د/ أحمد عبد الرحمن مصطفى. مراجعة: د/ أحمد عزت عبد الكريم. دار المعارف. سنة ١٩٦٥م القاهرة.

تاريخ أوربا العصور الوسطى (القسم الأول) ترجمة: محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العرينى، إبراهيم أحمد العدوى . دار المعارف سنة ١٩٥٤م القاهرة .

القرضاوى (د/ يوسف)

الإسلام والعلمانية وجها لوجه. الطبعة السابعة. مكتبة وهبة. سنة ١٩٩٧م القاهرة .

كراوذر (ج. ج)

صلة العلم بالمجتمع. ترجمة: حسن خطاب. مراجعة: د/ محمد مرسى أحمد . سلسلة الألف كتاب . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .

كرم (يوسف)

* تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط. الطبعة الأولى. دار الكتاب المصرى. سنة ١٩٤٦م القاهرة.

* تاريخ الفلسفة الحديثة. الطبعة السادسة. دار المعارف. سنة ١٩٧٩م القاهرة.

* تاريخ الفلسفة اليونانية. الطبعة السادسة. لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٧٦م القاهرة.

كولتون (جورج جوردن)

* عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة. ترجمة: د/ جوزيف نسيم يوسف. الطبعة الثانية. دار المعارف. سنة ١٩٦٧م القاهرة.

كون (توماس)

* بنية الثورات العلمية. ترجمة: شوقى جلال. سلسلة عالم المعرفة. العدد ١٦٨ سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م الكويت.

لوريمر (جون)

* تاريخ الكنيسة. ترجمة: عزرا مرجان. الجزء الرابع. الطبعة الأولى. دار الثقافة سنة ١٩٩٠م القاهرة.

مرجان (د/ محمد مجدى)

* الله واحد أم ثالوث. دار النهضة العربية. سنة ١٩٧٢م القاهرة.

المنفلوطى (جاد)

* تاريخ المسيحية (المسيحية فى العصور الوسطى). دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية. سنة ١٩٧٨م القاهرة.

الندوى (ابو الحسن على)

* ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. الطبعة العاشرة. دار القلم، دار الأنصار. سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م القاهرة.

الهندى (الشيخ / رحمت الله)

* إظهار الحق. تحقيق د/ محمد أحمد ملكاوى. دار الوطن للنشر، دار أولى النهى. سنة ١٤١٢هـ. الرياض.

هويزنجا (يوهان)

* أعلام وأفكار. نظرات فى التاريخ الثقافى. ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد. مراجعة: د/ زكى نجيب محمود. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢م القاهرة.

ولز (هـ. ج)

* معالم تاريخ الإنسانية (المجلد الثالث). ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد. الطبعة الثالثة. لجنة التأليف والترجمة والنشر. سنة١٩٧٢م. القاهرة.

اليسوعى (بوليس إلياس)

* يسوع المسيح شخصيته وتعاليمه. الطبعة الثانية. المطبعة الكاثوليكية بيروت.

يعقوب (نقولا)

* أبحاث المجتهدين فى الخلاف بين النصارى والمسلمين. مطبعة المعارف سنة ١٩٠١م.

يوسف (د/ جوزيف نسيم)

* دراسات فى تاريخ العصور الوسطى. مؤسسة شباب الجامعة. سنة ١٩٨٣م القاهرة.

* * *

قواميس ومعاجم

* قاموس الكتاب المقدس. تأليف: نخبة من أساتذة اللاهوت. هيئة التحرير د/ بطرس عبد الملك، د/ جون ألكساندر طمسن - / إبراهيم مطر الطبعة السابعة. دار الثقافة سنة ١٩٩١م.

* المعجم الفلسفى / مجمع اللغة العربية. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م القاهرة.

*المعجم الوجيز. مجمع اللغة العربية. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

* المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. الطبعة الثانية. دار المعارف سنة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م القاهرة.

* * *



الفهرس

فهرس الموضوعات

* * *